نَفْيُ الْخَوْفِ وَالْحُزْنِ عَنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ
مَوَاقِعُ قُرْآنِيَّةٌ وَأَسْرَارٌ بَلَاغِيَّةٌ

إِعْدادُ:

د. عيسى بن صلاح الرجبي

عضو هيئة التدريس في قسم الأدب والبلاغة في الجامعة

المقدمة

إنَّ أفضل ما يفتتح به الكلام حمد الله، فـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [سورة الكهف]، والصَّلاة والسَّلام على من خصَّه الله دون سائر الأنبياء بمعجزة القرآن، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وبعد.

فإنَّ المتأمِّل لعلم سائر الكلام غير القرآن الكريم يلحظ أنه تُخلقه كثرة الرّدِّ، وتُبلي جدَّته كثرة المراجعة والمذاكرة، ويبتذله كرّ الليل والنهار.

أمَّا القرآن الكريم فإنَّ له سلطاناً عجيباً يأخذ بالألباب وتنقاد له الأفئدة، فهو القمَّة في البيان، ألفاظه غاية في السبك والنَّظم، ومعانيه غاية في الإحكام والإتقان، أقبل العلماء على دراسة إعجازه البلاغيّ ؛ لأنَّ " الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخلّ بمعرفة الفصاحة، لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصَّه الله به من حسن التَّأليف، وبراعة التَّركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع والاختصار اللطيف، وضمَّنه من الحلاوة، وجلَّله من رونق الطلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها»[(١)].

ولما كانت عنايتي في دراساتي السابقة متّجهة نحو الشِّعر العربيّ والبيان النَّبوي ارتأيت – بمعونة الله وتسديده – أن تكون هذه المرحلة متّجهة للبلاغة القرآنيَّة، وأكرم بهذا الميدان ما أعظم عطاءه، وما أجلّ بركته فإنَّ "الاشتغال

(١) كتاب الصناعتين: ١٠.

بتعلّم القرآن وتعلّمه والبحث عن علومه ليس كالاشتغال بسائر أصناف العلوم، لأنَّ فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه" [1]، والقرآن الكريم هو الأصل الأول من أصول العربيَّة، فدراسة أساليبه والكشف عن أسرار تراكيبه من الأهمّيّة بمكان؛ لما فيه من عظيم المعاني وجميل المباني.

وقد وقع اختياري على دراسة موضوع:

«نفي الخوف والحزن عن أهل الإيمان مواقع قرآنيَّة وأسرار بلاغيَّة».

إذ إنَّ نفي اللهِ الخوفَ والحزنَ عن أهل الإيمان غاية السَّعادة الكبرى التي نطمح إليها جميعاً؛ فكلُّ نعيم عظيم إذا دام وكثر وسلم من الخوف والحزن، فلا يحزن صاحبه على أمر فاته، ولا على أمر يناله، ولا يخاف انقطاع ما هو فيه وتغيره، لأنه قد بلغ النهاية العظمى، وفي ذلك أعظم ترغيبٍ في طريقة أهل الإيمان وصفاتهم، وأعظم تحذير من خلافها.

مجال الدِّراسة وحدودها:

جاء انتفاء الخوف والحزن جزاءً ومثوبةً لأهل الإيمان في مواقف متعددة ومع أصنافٍ متنوِّعة تحلَّوا بصفاتٍ عدَّة في خمسة عشر موضعاً من الذِّكر الحكيم، هي:

• قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾[سورة البقرة].

(١) إعراب القراءات السبع وعللها: ١ / ٣٥، لابن خالويه.

• قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [سورة البقرة].

• قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [سورة البقرة].

• قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾ [سورة البقرة]

• قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾ [سورة البقرة].

• قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾ [سورة البقرة].

• قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [سورة آل عمران]

• قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [سورة المائدة].

• قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [سورة الأنعام].

• قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

• قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

• قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [سورة يونس].

• قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [سورة فصلت].

• قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾ [سورة الزخرف].

• قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة الأحقاف].

وقد تعدَّدت دوافع اختيار هذا الموضوع للبحث، ومن أهمِّها:

١) إبراز جانبٍ مهم من جوانب إعجاز القرآن الكريم بنظمه، فإنَّ من المسلّم به أن هذا الإعجاز من الناحية البلاغيّة يكمن في نظمه حيث لا تخلو منه آية.

٢) أهميَّة المنهج التطبيقي في البلاغة العربية ؛ لأنَّه المنهج الأصلح للكشف عن بلاغة التراكيب، والأقدر على تذوق النصوص البليغة وتعرُّف أسرارها، والبلاغة في هذا العصر بحاجةٍ لتعزيز هذا المنهج في نفوس الناشئة لتنمو لديهم ملكة التحليل والنّقد، خصوصاً بعد أن قُعِّدت قواعدها، وضُبطت موضوعاتها.

٣) عظيم الاعتماد على ظواهر القرآن الكريم الأسلوبيَّة وخصائصه التَّركيبية

في تقعيد قواعد البلاغة، ومراجعة وتقويم مقاييس البلاغيين، فإنَّ نظم القرآن الكريم في القمَّة في المستويين البلاغيّ واللغويّ.

٤) أنَّ موضوع "«نفي الخوف والحزن عن أهل الإيمان» ودراسة أسراره البلاغيَّة لم يحظ بدراسةٍ بلاغيَّة تطبيقيَّة تتعمَّق الكشف عن جوانب الإعجاز النَّظميّ فيه، وتجمع مواقعه في البيان الإلهي ودلالتها في موضعٍ واحد.

أنَّ دراسة الموضوع الواحد والقضيَّة الواحدة أجدى؛ لما في ذلك من الحصر والاستقراء والتَّركيز في التَّناول، وجمع المتشابهات للوصول إلى نتائج أدقّ في الحكم وأقرب للصَّحة والقبول.

هذا، وقد درستُ كلَّ هذه المواقع من خلال جمع المادة العلميَّة عن طريق الاستقراء، وتصنيفها بإلحاق النَّظير بنظيره حسب المعنى، ومن ثَمَّ تحليلها وبيان ما يرد فيها من نكتٍ بلاغيَّةٍ، مع الإفادة من كلام العلماء حولها، وتوجيه المتشابه اللفظيِّ فيها ما أمكن، فضلاً عن الالتزام بطرائق البحث العلميّ، ومنها: عزو الآيات القرآنية وكتابتها بالرَّسم العثماني، وعزو الأحاديث الشَّريفة لمصنَّفاتها.

والله أسأل أن يكون عملي خالصاً لوجهه الكريم والحمد لله ربِّ العالمين.

الموقع الأول: نفي الخوف والحزن عمَّن اتَّبع هدى الله تعالى الذي جاءت به رسل الله عليهم السَّلام: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة البقرة].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [سورة الأنعام].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

ظاهرُ التشابه اللفظي والمعنويّ بين الآيات الثلاثة، فقد جاءت الآية الأولى ختاماً لقصة آدم عليه السلام وتوبته حين أزَّله الشيطان فأخرجه الله من دار النعيم الذي كان فيه، وأهبطه من السماء إلى الأرض كما فعل بحواء عليها السلام وإبليس الرجيم، والاهباط هنا مشعرٌ بالتَّكليف في الدنيا، فهو نزولٌ يعقبه إقامةٌ واستقرارٌ في الأرض، فخاطبهم في الآية الأولى بقوله: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ ﴾، وجاءت الحال المؤكِّدة ﴿ جَمِيعًا ۖ ﴾ لتضفي على المعنى شمولاً وتوكيداً، ثم ساق الله جملة شرطيَّة ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ وهي توحي ببقيَّة من عتابٍ على عدم امتثال آدم عليه السَّلام الهدى الأول [1] حين نُهي عن الأكل من الشَّجرة فعصى، كما تُؤذن من وجهٍ آخر بعظيم نعمة الله على آدم وحواء عليهما السَّلام حيث كلَّفهما وذرّيتهما بما لو امتثلوه وقاموا به حقّ قيامه أدَّى بهم مرَّة أخرى إلى نعيم الجنَّة الدَّائم الذي لا يزول ولا يحول [2].

(١) انظر التحرير والتنوير: ١ / ٤٤٣.

(٢) انظر تفسير الفخر الرازي: ١ / ٢١٤.

وكما أخذ الله العهد على آدم في الآية السَّابقة خاطب في آيتي الأنعام والأعراف ذرّيتهما بمثله بأنَّ من اهتدى بما أنزله الله من كتبٍ وبما أرسله من رسلٍ نجا يوم القيامة وفاز، فلا خوف عليهم «فيما يستقبلونه من أمر الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من أمور الدنيا»[١]، ومن ضلَّ هلك وخسر الدُّنيا والآخرة.

وتبرز بلاغة الآيات الكريمة من خلال الخصائص البلاغيَّة التالية:

- بناء جمل الآيات كلها جاء على الشرط والجزاء، فدخول حرف الشَّرط سببٌ في ربط فعل الشرط بجزائه بحيث يصبحان كالجملة الواحدة في الوفاء بالمعنى، فلا يتمّ المعنى إلا بهما معاً، لأن الشرط مرتبط بجوابه ومفتقر إليه، وفي سلوك النَّظم لهذه الطَّريقة تشويق للمخاطبين، فالمتحدِّث عندما ينطق بالشَّرط يترقَّب المخاطب الجواب، ويتطلَّع لمعرفته حتى يقف عليه فيتمكَّن في ذهنه، ولذا تقوى رغبته ويشتدّ حرصه على الامتثال لمضمونه.
- تتَّفق آيتا البقرة والأعراف في الشرط بقوله: ﴿فَإِمَّا﴾ و﴿إِمَّا﴾، والتي أصلها﴿إِن﴾ الشَّرطيَّة زيدت عليها﴿مَا﴾ إرادةً لشدّة التأكيد لمعنى جملة الشَّرط وأُدغمت فيها، وهي أبلغ في الشرط من ﴿إِن﴾، ولذلك تُتلقَّى وجوباً بنون التوكيد المبني عليها المضارع[٢] كما في الآيتين ﴿يَأْتِيَنَّكُم﴾،

(١) تفسير القرآن العظيم: ١ / ٧٩ لابن كثير.

(٢) انظر الكشاف: ٢ / ٩٧، والبرهان في علوم القرآن: ٢ / ٥١٢.

قال ابن عاشور: "وجاء الشرط بحرف ﴿ إِن ﴾ مزيدة بعدها ﴿ مَا ﴾ ؛ لإفادة تأكيد وقوع الشرط، وبذلك تنسلخ ﴿ إِن ﴾ عن الإشعار بعدم الجزم بوقوع الشرط، وزيد التأكيد باجتلاب نون التوكيد"(١).

- وفي إيراد فعل الإتيان ﴿ يَأْتِيَنَّكُم ﴾ وجعله فعلاً للشرط على صيغة المضارع إشعارٌ بالتَّجدُّد والحدوث بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وهذا ما يُصدِّقه الواقع فقد بلغ عدد أنبياء الله مائة وأربعة وعشرين ألفاً، والرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر، كما أن أداة الشرط ﴿ إِن ﴾ متجدِّدة، والأفعال متجدِّدة " فلا جرم ناسب معناها الفعل فاختصّت به "(٢).

- جاء تأكيد فعل الإتيان ﴿ يَأْتِيَنَّكُم ﴾ بنون التَّوكيد الثَّقيلة التي هي بمثابة تكرير الجملة مرَّتين؛ تأكيداً على أنَّ إتيان الهدايات للحقِّ من الله أمرٌ مؤَكَّدٌ، وأنَّ الجنَّة لا يردُّ إليها أحد بعد خروج أبوينا منها إلا بعد الابتلاء والامتحان بما يأتي العباد من الأوامر والنَّواهي.

- في آيتي البقرة والأعراف دخل شرط على شرط، وبذلك يتقوَّى عمل الأول بالثاني ويزيد من معنى الشرط في الجملة، "فإن كان الثاني بالفاء فالجواب المذكور جوابه، وهو وجوابه جواب الشرط الأول"(٣).

- الأصل في استعمال أداة الشرط ﴿ إِن ﴾ أنها تستعمل في المحتمل

(١) التحرير والتنوير: ١٠ / ٤٩، وانظر جامع البيان: ١، ١: ٢٤٦.

(٢) الطراز: ٣ / ٢٩٨.

(٣) البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٤٧٢.

المشكوك فيه، ولكنَّها استعملت في آيتي البقرة والأعراف في مقام المجزوم به المحقَّق الوقوع وهو إتيان الهدى الذي هو أمرٌ مقطوعٌ به؛ وذلك للإشارة إلى أنَّ إرسال الرّسل أمر جائزٌ ليس بواجبٍ على الله تعالى، وفي ذلك ردٌّ على المعتزلة الذين ذهبوا إلى وجوب ذلك [١] يقول الألوسي: " وجيء بحرف الشّك إذ لا قطع بالوقوع، فإنّه تعالى لا يجب عليه شيء، بل إن شاء هدى وإن شاء ترك"[٢].

أمَّا الزمخشريّ فتعليل ذلك عنده أنَّ بعثة الرّسل وإنزال الكتب ليست واجبة على الله عقلاً، فهناك من الدَّلائل العقليَّة والآيات الآفاقيَّة والنَّفسيَّة ما يدلّ على الله، يقول: "فإن قلت: فلم جيء بكلمة الشّكّ، وإتيانُ الهدى كائن لا محالة لوجوبه ؟ قلت: للإيذان بأنّ الإيمان بالله والتوحيد لا يشترط فيه بعثة الرسل وإنزال الكتب، وإنه إن لم يبعث رسولاً ولم ينزل كتاباً، كان الإيمان به وتوحيده واجباً، لما ركّب فيهم من العقول ونصب لهم من الأدلة، ومكَّنهم من النظر والاستدلال"[٣]، وساق الألوسي وجهاً آخر أجمل وأوفق للسياق ممَّا سبق وهو تنزيل المقطوع به منزلة غير المقطوع به مناسبة للمقام، فقال: " وقيل: بالقطع واستعمال ﴿إن﴾ في مقامه لا يخلو عن نكتة كتنزيل العالم منزلة غيره

(١) انظر تفسير أبي السعود: ١ / ١٦١، وروح المعاني: ١ / ٣٣٩.

(٢) روح المعاني: ١ / ٣٣٩، الألوسي بذلك يردّ على الزمخشري قوله: " إن إتيان الهدى على الله واجب "، وهذا هو الحقّ فإن الله تعالى لا يجب عليه شيء.

(٣) الكشاف: ١ / ١٥٨، وانظر تفسير أبي السعود: ١ / ١٦١.

لعدم جريه على موجب العلم، ويحسّنه ما سيق وقوعه من آدم"[1].

ومرداه أنه نزِّل هنا العالم بوقوع الشرط، وهو المخاطب الجازم بإرسال الرسل وإنزال الكتب، منزلة الجاهل بذلك؛ لعدم جريه على موجب العلم، فواقع المخاطبين على حالٍ من الكفر والفسق وتكذيب آيات الله ورسله لا تناسب علمهم بوقوع الشرط وما يقتضيه الجزم بتحقُّقه.

فهذه الأحوال تناسب كونهم جاهلين بوقوع الشرط، ولذلك خوطبوا بحرف الشَّك، وهو ما يناسب سياق القصَّة في آية البقرة وما وقع من آدم عليه السلام من عصيان أمر الله مع تحذير الله سبحانه له، ويمكن القول أيضًا: إنَّ الشَّكَّ هنا ليس في أصل الفعل، فالفعل وهو إتيان الهدى محقَّقٌ بلا ريب، ولكن زمان مجيئه مبهم فيناسبه استعمال أداة الشرط ﴿إِن﴾، فكما أن التَّحقُّق والشك يكونان في حدث الفعل فكذلك يكونان في زمانه أيضا.

وقيل: للجري على سنن العظماء في إيراد عسى ولعلَّ في مواقع القطع والجزم[2].

● في آية البقرة قدَّم الجار والمجرور ﴿مِّنِّي﴾ على الفاعل ﴿هُدًى﴾ لإفادة الاختصاص أي إنَّ تلقِّي الهدى من الله لا من غيره، وللاعتناء بشأنه وإظهار الاهتمام به، والحثَّ على المخبَر به، فالرسول المرسل والكتاب المنزل هو من عند الله وحده، وكفى بذلك داعياً للحرص عليه، وإلا لاقتصر على قوله: " يأتينَّكم هدى "، أمَّا آية الأعراف فلم يأت فيها هذا التَّقديم حيث قال: ﴿إِمَّا

(١) روح المعاني: ١ / ٣٣٩.

(٢) انظر تفسير أبي السعود: ١ / ١٦١.

﴿ يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ فنصَّ على أنَّ هؤلاء الرُّسل ﴿ مِّنكُمْ ﴾ لأنَّه أقطع لعذرهم، وأبين للحجَّة عليهم، وذلك من جهاتٍ متعدِّدة: " فإنَّ معرفة النَّاس برسولهم وأحواله لكونه منهم: متقدِّمة.

وثانيها: أنَّ معرفتهم بما يليق بقدرته تكون متقدِّمة، فلا يقع في المعجزات التي تظهر عليه شكٌّ في أنَّها حصلت بقدرة الله تعالى لا بقدرته.

وثالثها: ما يحصل من الألفة إلى أبناء الجنس، بخلاف ما لا يكون من الجنس، فإنَّه لا يحصل معه الألفة"(١).

وفي هذا تعريضٌ بالجهلة من الأمم الذين أنكروا رسالة رسلهم"(٢).

● وفي آية البقرة انتقالٌ بديع " شبيهٌ بالالتفات " فإنَّه في أولها عبَّر بالضمير الموضوع للجمع أو المعظِّم نفسه ﴿ قُلْنَا ﴾ تأكيداً لأمر الهبوط على ما يقتضيه المقام، ثم انتقل للضمير الخاص بالمتكلِّم المفرد ﴿ مِّنِّي ﴾ ولم يقل: " منَّا "، وحكمته المناسبة للواقع، فالهدى والخير لا يكون إلا من الله وحده، فناسب الخاص للخاص" (٣)، كما أنَّه يشير إلى الامتنان والاعتداد، وذلك لا يكون إلا في شيء عظيمٍ يمنحه أرحم الرَّاحمين.

● والتنكير في ﴿ هُدًى ﴾ للتعظيم والتكثير فهو يشمل إنعام الله على عباده بأنواع الهداية الشرعيَّة والعقليَّة من إرسال الرسل وإنزال الكتب وغيرها، وهو ما

(١) تفسير الفخر الرازي: ١٤ / ٥٧.

(٢) التحرير والتنوير: ٨ / ١٠٨.

(٣) البرهان في علوم القرآن: ٣ / ٣٩٩، وانظر البحر المحيط: ١ / ١٦٨، وقطف الأزهار في كشف الأسرار: ١ / ٢٣٧

صرَّح به في آية الأعراف فقال جلَّ جلاله: ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾.

● وفي العدول عن الإضمار إلى الإظهار حيث كرَّر الهدى ﴿هُدَاىَ﴾ دون الاكتفاء بضميره ؛ رغبةً في تأكيده في الأذهان وتعظيمه في الضَّمائر، والتَّحريض على الاهتمام به وباتِّباعه[1] فهو هداية توفيق وفلاح في الدنيا والآخرة، و" لأنه أراد بالثاني أعمَّ من الأول، وهو ما أتى به الرسل واقتضاه العقل، أي فمن اتبع ما أتاه مراعياً فيه ما يشهد به العقل فلا خوف عليهم فضلاً عن أن يحلّ بهم مكروه، ولا هم يفوت عنهم محبوب فيحزنوا عليه"[2]، فلو اكتفى بالضمير لكان المراد به نفس الهدى الأول وهو ما يكون بإنزال الكتب وإرسال الرسل[3]، لكن لما كرَّره باسمه دلَّ على أنَّ المراد بالثاني أشمل من الهدى الأول وهو ما يكون بما سبق وبما دلَّ عليه العقل.

● وإضافة الهدى الثاني إلى ياء المتكلِّم " ضمير الجلالة " ﴿هُدَاىَ﴾ وقد أغنى عنه الضمير في ﴿مِّنِّى﴾ إضافة تعظيمٍ وتشريفٍ وكمالٍ، وهي أوقع في الحثّ على اتِّباعه والتَّمسُّك به والحرص عليه [4]، كما جاءت هذه الإضافة في

(١) انظر قطف الأزهار في كشف الأسرار: ١ /٢٣٧، وتفسير أبي السعود: ١ / ١٦٢.

(٢) تفسير البيضاوي: ١ /٥٥، وانظر نظم الدرر: ١ / ٢٩٩.

(٣) أشار الزركشي إلى أنَّ من إعجاز القرآن الكريم أن الكلمة الواحدة تتصرّف إلى عشرين وجهاً أو أكثر أو أقلّ، ولا يوجد ذلك في كلام البشر، وضرب مثالاً لذلك بكلمة ﴿ٱلْهُدَىٰٓ﴾ فإنَّ لها سبعة عشر معنى، والمراد بها هنا: الرسل والكتب. انظر البرهان: ١ / ١٩٣.

(٤) انظر قطف الأزهار في كشف الأسرار: ١ / ٢٣٧، وروح المعاني: ١/٢٤٠.

آية الأعراف ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي ﴾ فأضاف الآيات إلى "ياء المتكلِّم" العائد إلى ذاته العليَّة للتَّعظيم، فهي آيات عظيمة جاءت على نظمٍ يعجز البشر عن محاولة الإتيان بمثله(١).

● وبالجملة فإنَّ بلاغة الإيجاز البديع تتجلَّى في قوله: ﴿ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى ﴾ فهي في غاية الإيجاز والاختصار ؛ لأنها قد جمعت كلَّ أنواع الهدايات التي يبعثها الله لعباده من إرسال الأنبياء والرُّسل وإنزال الكتب وتكريم بني آدم بالعقول التي بها يتفكَّرون ويعقلون طريق الحقِّ.

● جزاء المؤمنين المتّبعين للهدى المتأمِّلين للأدلة والعاملين بتعاليمها جاء بآكد وجهٍ وأبلغه من خلال جملتين متعاطفتين كلتاهما اسميَّة: فنفى الله عنهم أوَّلاً الخوف وهو الغمُّ من المتوقَّع في المستقبل من أمر الآخرة ﴿ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ ﴾ " والخوف توقُّع مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومة... ويُستعمل ذلك في الأمور الدّنيوية والأخرويَّة"(٢).

وبعبارةٍ أخرى" هو اضطراب النَّفس من توقُّع فعلٍ ضارّ"(٣).

---

(١) انظر التحرير والتنوير: ٨ / ١٠٩.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٢١٥.

(٣) نظم الدرر: ١ / ٢٩٩، أشار العلامة الشنقيطي إلى أن الخوف في لغة العرب هو الغمّ من أمر مستقبل، والحزن الغمّ من أمرٍ ماضٍ، وربما استعمل كلٌّ منهما في موضع الآخر، وأنّه يأتي إطلاق الخوف على معنى " العلم "كما في قوله تعالى: ﴿ إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٩] ومعناه: إلا أن يعلما. انظر =

وقيل: " هو الفزع لحلول مكروهٍ أو فوات محبوبٍ" [1]، والتنكير في قوله: ﴿ خَوْفٌ ﴾ واقعٌ في سياق النَّفي فيفيد العموم إشارة إلى نفي أي خوفٍ عليهم قليله وكثيره ؛ زيادة في التَّرغيب في عملهم، يقول ابن عاشور: "والتعبير في نفي الخوف بالخبر الاسمي وهو ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ لإفادة نفي جنس الخوف نفياً قارَّاً ؛ لدلالة الجملة الاسميَّة على الدَّوام والثَّبات"[2]، وزوال الخوف يتضمَّن السَّلامة من جميع الآفات، وإلا فإنَّ الخوف الطبعيّ يطرأ على النفوس البشريَّة ويعتريها من أهوال يوم القيامة.

= أضواء البيان: ٤ / ٤٧٨، قلت: ويدل لاستعمال الخوف في الأمر المستقبليّ أنه يأتي غالباً في النَّظم القرآنيّ في سياق التخويف والتحذير من عذاب الآخرة كقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة الأنعام]، وكقوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام في نصحه لوالده: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾. [سورة مريم]، فأُخرج الخوف فيهما مخرج الظنّ دون القطع لأنه من كلام البشر تأدُّباً مع الله تعالى، لكن حين يكون نفي الخوف صادراً من الله – كما في الآيات موضع البحث – فإنَّه على القطع لا الظَّنِّ.

(١) انظر الإفصاح في اللغة: ١/١٦٨.

(٢) التحرير والتنوير: ١ / ٥٤٠، من الملحوظ أنه في جميع المواضع أهمل إعمال ﴿ لَا ﴾ في النكرة بعدها ﴿ خَوْفٌ ﴾ ؛ لأن ﴿ لَا ﴾ الثانية ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ بعدها معرفة، وهي لا تعمل وجوباً في المعارف، فلما وجب إهمال الثانية أُهملت الأولى لينسجم الحرفان بعضهما مع بعض في إهمالهما معاً. انظر أضواء البيان: ٤ / ٤٧٨.

والمراد هنا التَّسلِّي بوعد الحفظ والنُّصرة يقول السيوطي: " فإن قيل: كيف نفى الخوف عنهم، والأحاديث ناطقةٌ بأنَّ المتَّقين حتى الأنبياء يحذرون في الآخرة ويخشون، يقول كلٌّ منهم: نفسي نفسي ؟

أجيب: بأنه لا إشكال على القراءة المشهورة ؛ إذ لا تفيد الاستغراق، وقرئ (لا خوفَ) بالفتح على إفادته تنزيلاً للخوف الذي يعقبه الأمن الدَّائم منزلة العدم"(١).

١) ونفى ثانياً عن المهتدين الحزن وهو الغمُّ الذي يعتري القلب على الأمر الماضي والحاضر ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ و" الحزن خشونةٌ في النفس لما يحصل فيها من الغمِّ، وضدُّه الفرح"(٢)، أو هو " توجّع القلب لأجل نازحٍ قد كان في الوصلة به روح، والقرب منه راحة " (٣).

والمراد بنفي الحزن نفي جميع أسبابه الموجبة له وذلك في رأيي يشمل ما يلي: نفي الحزن عن قلوب أهل الإيمان جرَّاء ما خلَّفوه ورائهم من حظوظ الدُّنيا وما فاتهم من متاعها، ونفي الحزن الذي وقر في قلوبهم جرَّاء الخوف من ربِّهم وخشيتهم منه أن يكبّهم في نار السَّموم ويدل لذلك ما حكاه الله عن أهل الجنة أنهم يقولون حين دخولها: ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة فاطر]، فخوف المؤمنين في الدنيا من نار السَّموم وإشفاقهم

(١) قطف الأزهار في كشف الأسرار: ١ / ٢٣٨.

(٢) المفردات في غريب القرآن:١٥١، وانظر عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: ٣٩٩/١.

(٣) نظم الدرر: ٢٩٩/١.

من عدم دخولهم الجنَّة يزيله الله ويُذهبه في الآخرة، وزوال الحزن في دار المقامة هنا يقتضي الوصول إلى كلِّ الملذات والمرادات في نعيم الجنَّة مع تمام الراحة النفسية فلا قلق يكدر عيشهم، ولا كدر ينغص عليهم إقامتهم.

● وقد تضمَّنت هاتان الجملتان محسِّناً بديعيَّاً هو مراعاة النَّظير، إذ الحزن نتيجة الخوف فهما متلازمان، وفي نفيهما نفي لكلِّ ما يكدِّر نفوس المهتدين في الآخرة على ما فاتهم في الدّنيا وعلى ما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة، إذ الجملتان تؤكِّدان أنهم لا يصيبهم ما يكرهون، ولا يفوتهم ما يحبّون، وأنَّى لهم الخوف والحزن وهم مقبلون على حسابٍ يسير، ينقلبون بعده إلى أهلهم مسرورين في جنات النَّعيم التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

● وعطف الجملة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما قبلها بالواو للتَّوسط بين الكمالين مع التناسب المصحِّح للعطف ؛ لاتفاقهما معاً في الخبريَّة، مع التَّناسب القائم بينهما على التَّماثل في كونهما خبرين من الله يحملان البشرى لعباده المؤمنين.

● ويلاحظ أنَّ نفي الخوف والحزن جاء في ستّ آياتٍ من سورة البقرة، خمسٌ منها عُرِّيت من دخول الفاء، وهذا الموضع الوحيد في السُّورة الذي جاء نفي الخوف والحزن فيه متَّصلاً بالفاء التي رتَّبت ما بعدها على ما قبلها ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فجاء متَّفقاً مع آيتي الأنعام والأعراف؛ واقتران هذا الجزاء والثَّواب للمؤمنين بالفاء لربط جواب الشرط ﴿ مَن ﴾ بفعله، ولتشير إلى المبالغة في تحقُّق هذا الوعد لما في الفاء من معنى السَّببيَّة الدّال على ارتباطه بالمخبر عنه ارتباط العلَّة بالمعلول، يقول البيضاوي في تعليل دخول الفاء في قوله:﴿ فَلَا

خَوْفٌ ﴾ في آية الأعراف: "وإدخال الفاء...للمبالغة في الوعد" [١].

وفسَّر الخفاجيّ وجه المبالغة بقوله: " ووجه المبالغة في الوعد لعدم تخلّفه جَعَله سبباً عن التَّقوى والعمل الصَّالح المشعِر بأنَّه لا ينفكُّ عنه؛ إذ المعلول لا يتخلَّف عن العلَّة غالباً، بخلاف الوعيد فإنَّه يجوز تخلُّفه"[٢].

● وتقديم ضمير الغائبين المسند إليه ﴿ هُمْ ﴾ على الخبر الفعلي في حيِّز النفي مفيد الاختصاص وتقوية الحكم وتأكيده، أي قصر نفي الفعل على الاسم المتقدِّم، فالمقصور: "الحزن المنفيّ "، والمقصور عليه: "الضمير ﴿ هُمْ ﴾ "، قصر صفةٍ على موصوف، وفيه تأكيد على اختصاص الصِّفة بالموصوف ونفيها عن غيره، يقول أبو حيان عن تقديم ﴿ هُمْ ﴾ " إشارة إلى اختصاصهم بانتفاء الحزن، وأنَّ غيرهم يحزن، ولو لم يشر إلى هذا المعنى لكان (لا يحزنون) كافياً " [٣] فجملة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ جاءت معطوفة على قوله: ﴿ فَلَا خَوْفٌ

(١) تفسير البيضاوي:١/ ٣٣٧، وانظر الفتوحات الإلهية: ٣/٣١، والتحرير والتنوير: ٨/١٠٩.

(٢) حاشية الشهاب: ٤ / ١٦٦.

(٣) البحر المحيط: ١ / ٣٢٣، وحاشية الشهاب: ٢ / ١٤٢، يرى الشيخ عبد القاهر أن تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في النفي يفيد التخصيص بقصر نفي الفعل على المسند إليه المقدم، ويفيد ثبوت هذا الفعل والتسليم بوقوعه من غيره وذلك على حسب النفي عموماً وخصوصاً. انظر دلائل الإعجاز: ١٢٤، وقد انتقد د. محمد أبو موسى في كتابه " دلالات التراكيب ": ١٧٩ تعميم العلماء في القول بأنَّ المسند إليه المقدَّم على الخبر الفعليّ مسبوقاً بالنفي يفيد التخصيص والقصر دائماً على سبيل القطع، ذاكراً شاهدين من القرآن (سورة الأنبياء: آية ٣٩، ٤٠) يرى أن تقديم المسند إليه فيهما يفيد مجرَّد التقوية ورعاية الفاصلة، =

عَلَيْهِمْ ﴾ فعدل النَّظم القرآنيّ فيها عن عطف المفرد فلم يقل: " فلا خوفٌ عليهم ولا حزنٌ " ليتأتَّى بذلك بناء المسند الفعلي على ضميرهم المسند إليه المتقدِّم، وهذا يدلّ على أنَّ الحزن واقع بغيرهم وهم الذين كفروا فيحزنون على ما خلَّفوه من متع الحياة ونعيم الدُّنيا، ويحزنون على تفريطهم في إتِّباع هدايات ربِّهم وتضييعهم لأوقاتهم في غير مرضاة ربِّهم فتكون حسرة عليهم، يقول الألوسي: " وقدَّم الضمير إشارة إلى اختصاصهم بانتفاء الحزن، وأن غيرهم يحزن، والمراد بيان دوام الانتفاء، لا بيان انتفاء الدوام كما يتوهم من كون الخبر في الجملة الثانية مضارعاً لما تقرَّر في محلِّه أن النفي وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام " [1]، والقصر هنا بحسب الظَّاهر لي أنَّه قصر إفراد لمن اعتقد أنَّ الحزن منفيّ عنهم وعن غيرهم.

● وفي التَّعبير بنفي الخوف بحرف الاستعلاء ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ دون التعبير بنفي الخوف لهم أو عندهم" إشارة إلى أنهم قد بلغت حالهم إلى حيث لا ينبغي أن يخاف أحد عليهم"[2]، فهم بمكانٍ عند الله لا يُخاف عليهم ولا خوف ينالهم،

= ممَّا يؤكِّد أن الأسلوب القرآنيّ أجلّ من أن يحكم بقاعدة مطردة، فالتركيب بذاته لا يفيد القصر على جهة القطع واللزوم، وإنما يستفاد من غالب مواقعه معنى القصر بالقرائن والسياق، فالمتكلِّم حين يسلِّط النفي على الفاعل لا يلزم منه ثبوت الفعل؛ لأنَّ الفعل مسكوتٌ عنه، فيمكن أن يكون ثابتاً كما في أمثلة الاختصاص التي ذكرها عبد القاهر، وقد يكون غير ثابتٍ كما في قولنا: ما أنا قلت هذا، أي هذا الذي تزعمون أنَّه قيل.

(١) روح المعاني:١ ٢٣٩، وانظر تفسير أبي السعود: ١ /١٦٢، والتحرير والتنوير: ٨ /١١٠.

(٢) روح المعاني: ١/٢٣٩.

فضلاً عن أن يحلّ بهم مكروه، ولا هم يفوت عنهم محبوب ولا مرغوب فيحزنوا عليه، أو " إشارة إلى أنَّ الخوف الذي يحصل لهم من أهوال الموقف يسيرٌ بالنّسبة إلى ما يحصل للكافرين فلا يستعلي عليهم" [(١)].

أي: أنَّ أسباب الخوف ودواعيه قد استعلت على النّفوس في ذلك الموقف الرَّهيب ولكنَّها منفية عن أهل الإيمان، وأبو حيان في البحر المحيط يرى أنه سبحانه "كنَّى بقوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عن الاستيلاء والإحاطة، ونزَّل المعنى منزلة الجرم، ونفى كونه معتلياً مستولياً عليهم، وفي ذلك إشارة لطيفة إلى أنَّ الخوف لا ينتفي بالكليَّة، ألا ترى إلى انصباب النفي على كينونة الخوف عليهم، ولا يلزم من كينونة استعلاء نفي الخوف انتفاء الخوف في كلّ حال.

ولذلك قال بعض المفسرين: ليس في قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ دليل على نفي أهوال يوم القيامة وخوفها على المطيعين لما وصفه الله تعالى ورسوله من شدائد القيامة، إلا أنها مخفَّفة عن المطيعين، فإذا صاروا إلى رحمته فكأنهم لم يخافوا"[(٢)].

● وبُدئ بتقديم نفي الخوف أوَّلاً على نفي الحزن " لأنَّ زوال الخوف يتضمَّن السلامة من جميع الآفات، وزوال الحزن يقتضي الوصول إلى كلِّ الملذات، وقدَّم عدم الخوف على عدم الحزن؛ لأنَّ زوال ما لا ينبغي مقدَّم على طلب ما ينبغي"[(٣)].

(١) قطف الأزهار: ١ / ٢٣٨.

(٢) البحر المحيط: ١ / ٣٢٣.

(٣) مفاتيح الغيب: ٢ / ٢٦، وانظر قطف الأزهار: ٢ / ٢٣٨.

● **وقيل: "لما كان الخوف أشدّ، لأنّه يزداد بمرّ الزّمان، والحزن يخفّ، قدَّمه "** [1]**، ويرى أبو حيان أنه " قدَّم عدم الخوف على عدم الحزن ؛ لأنَّ انتفاء الخوف فيما هو آتٍ آكد من انتفاء الحزن على ما فات، ولذلك أبرزت جملته مصدَّرة بالنَّكرة التي هي أوغل في باب النَّفي، وأبرزت الثانية مصدَّرة بالمعرفة في قوله: ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾"**[2].

● **ولا يخفى على المتأمِّل ظهور الاحتباك** [3] **في موضعين من آية البقرة لبناء هذه الآية مع التي تليها على التَّقابل بين فريقين "المؤمنين والكافرين"، فلمَّا رغَّب في اتِّباع الهدى أتبعه مباشرة بالتَّحذير من مصير المعرضين عن الهدى فقال تعالى:** ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

---

(١) نظم الدرر: ١/٢٩٩.

(٢) البحر المحيط: ١/ ٣٢٣.

(٣) الاحتباك مظهر من مظاهر تفاعل أجزاء الكلام واتصاله اتصالا وثيقا ؛ إذ تتبادل الجمل التعاون والتخفف بأن يحذف من الأول لدلالة الثاني عليه، ومن الثاني ما ثبت نظيره في الأول، وهو يكسب الكلام قوَّة وزينة، القوة من حيث استيفاء الأقسام، والزينة من حيث الحذف المتناظر في المتقابلين مع أداء المقصود، فهو يعتمد على حذف نصف الكلام وترك ذكره. انظر خصائص التعبير القرآني:٢ /٧٣ د. عبد العظيم المطعني، ومعجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ١/٥٥ – ٥٦.

الموضع الأول: أنَّ انتفاء الخوف والحزن من الأول دالٌّ على وجودهما في الثاني، ووجود النَّار في الثاني دالٌّ على انتفائها ووجود الجنة في الأوَّل (١).

والتقدير: " فمن تبع هداي فأولئك أصحاب الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين كفروا وكذبوا بآيتنا أولئك أصحاب النار عليهم خوف وهم يحزنون"، فيكون الذكر الحكيم أثبت للمهتدين ما هو أحبّ لهم وأعلق بقلوبهم ببثِّ الطمأنينة في نفوسهم بنفي الخوف عليهم ونفي الحزن عنهم، وأثبت لهم دخول الجنَّة بطريق آكد وأبلغ؛ لأنَّ من نفى الله عنه الخوف مما هو آتٍ، ونفى الحزن عنه مما مضى لا بدَّ أن يدخله جنَّته كرماً وتفضُّلاً منه سبحانه، وفي جانب المعرضين عن هدى الله ذكر ما هو أخوف لهم ترهيباً وأجلب للحزن لقلوبهم بذكر صحبتهم للنَّار المشعر بدوام ملازمتهم لها وطول مقامهم فيها، ومن كانت النار صاحبة له فكلُّ الخوف والحزن له من باب أولى، والموضع الثاني: أنّ " إثبات الهدى في الأوَّل دالٌّ على انتفائه في الثاني، وإثبات الكفر في الثاني دالٌّ على حذف الإيمان في الأوَّل"(٢).

والتقدير: "فمن تبع هداي فأولئك الذين آمنوا، ومن لم يتَّبع هداي فأولئك الذين كفروا "، والقيمة لهذا الاحتباك في المعاني العظيمة للركنين المذكورين، فذكر في الطرف الأوَّل السبب الأبرز في إيمان المؤمنين ونجاتهم

(١) انظر نظم الدرر: ١ / ٣٠٢، والبحر المحيط: ١ / ٣٢٤، وقطف الأزهار: ١ / ٢٣٩.
(٢) نظم الدرر: ١ / ٣٠٢.

وهو اتِّباعهم الهدى الذي جاء به المرسلون عن ربِّهم ؛ ترغيباً لهم في سلوكه، وذكر في الطرف الثاني أسوأ أنواع الكفر وهو الكفر بالآيات وتكذيبها التي جعلها الله دلائل على وحدانيته وربوبيته ؛ ترهيباً من سلوكه وتحذيراً من عاقبته، وهذا الاحتباك مع إيجازه في الصياغة يزيد نظم الكلام تماسكاً وترابطاً دونما تأثيرٍ على المعنى.

● ويلاحظ أنَّه في آية البقرة نفى الخوف والحزن عن المتّبع لهدى الله وهو المناسب لسياق القصَّة في هذه السُّورة، فإنَّ نعمة الله على آدم عليه السَّلام في قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة البقرة] لما سُلبت منه كانت أدعى للحزن على ما فاته من الجنّة ونعيمها والخوف من المستقبل الذي سيُلاقيه في الأرض لما أمره الله بالهبوط من الجنَّة، فكان من تمام رحمة الله بأبينا آدم عليه السلام وذريته تبشيرهم بأنَّ من اتّبع هدى الله فلا خوف عليه ولا هم يحزنون، بخلاف سياق القصَّة ذاتها في سورة طه فإنَّه ختم جزاء المتبعين لهدى الله بنفي الضلال عنهم في الدنيا لتمسُّكهم بالعروة الوثقى، ونفي الشقاء عنهم في الآخرة لعملهم في الدنيا بما يستوجب السعادة من طاعة ربهم وطاعة رسلهم فقال: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾[1]؛ لأنَّ سياق الآيات قبلها اختصّ بتحذير آدم

(١) أشار الزركشي في البرهان في علوم القرآن: ٣ / ٢٠٣ لوجود احتباك في الآية وهو ما سمَّاه " الحذف المقابلي "بالحذف من كلٍّ ما أثبت نظيره في الأخرى، ومراده أن ذكر " نفي الضلال والشقاء "عن المهتدين أولا دليل على حذف " ثبوت الضلال والشقاء " للمعرضين ثانيا، =

عليه السَّلام من الشَّقاء فقال تعالى: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾ هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى فأنَّه أثبت في الآية بعدها للمعرض عن ذكر ربِّه العقاب بضيق العيش وضنك الحياة في الدنيا فيضلّ فيها حائراً قلقاً كما يعاقب بالعمى والنسيان في الآخرة فقال: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ فناسب أن يكون جزاء المتَّبع لهدى ربِّه في هذا السياق نفي الضَّلال والشَّقاء عنه في الدُّنيا وفي الآخرة، كما أنَّ سياق الآيات قبلها وبعدها جاء على فاصلةٍ واحدةٍ هي" الألف المقصورة "، وتواليها على حرفٍ واحدٍ أعطى الآيات تميُّزاً صوتياً وتناسباً نغميَّاً تأنس له الأسماع وتصغي له القلوب.

ويمكن القول أيضاً: إنَّ التناسب هنا " تناسبٌ من نوع خاص متميز، فآية البقرة نُفي فيها أمران: الخوف، والحزن.

وآية طه نُفي فيها أمران أيضاً: الضلالُ والشقاء، فإذا اجتمع ذلك كلّه للذين يتّبعون الله بحقٍّ علماً وعملاً، فلا يخافون من مستقبلٍ ولا يحزنون على ماضٍ، ولا يضلون في الدّنيا ولا يشقون في الآخرة"[١].

= وذكر " المعيشة الضنك " ثانيا دليل على حذف " العيشة الراضية " أولا، والتقدير: "فمن اتبع هداي فإن له معيشة راضية ولا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا وهو ضال وشقيّ "، وللدكتور محمد الصامل حديث طويل عن توجيه المتشابه اللفظي بين الآيتين مع آية الأعراف رقم (٢٤). انظره في كتابه: من بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم: ١٥٧ – ١٧٢.

(١) من بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم: ١٧١ د محمد الصامل، وانظر نظم =

● **وقد جاء استفتاح آية الأعراف بنداء الله لبني آدم ؛ للإشارة إلى عموم الأمر المنادَى من أجله لجميع الناس فهو عام لكلِّ بني آدم لما فيه من إرشاد وتعليم لهم، وليتسق النظم مع طريقة النظم قبله في قوله تعالى في السُّورة نفسها: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ ﴾.**

= الدرر:١٢/٣٦٢، وللعلماء حديثٌ حول التشابه اللفظي بين الفعل ﴿ تَبِعَ ﴾الذي جاء مخفَّفاً على وزن (فَعِل) في البقرة، وجاء مشدَّداً في طه ﴿ ٱتَّبَعَ ﴾ على وزن (افتعل)، ولعلَّه اختار في سورة طه صيغة ﴿ ٱتَّبَعَ ﴾ " لسبق التصريح بمعصية آدم عليه السَّلام، ومراعاة للمناسبة اللفظيَّة وموافقة لقوله تعالى قبلها في السّورة نفسها: ﴿ يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ ﴾ انظر البرهان في متشابه القرآن: ١٠٨ للكرماني، وفتح الرحمن: ٢٦ للأنصاري، وقيل: إنَّ (تبع) هو الأصل ولم يُذكر في سياق هذه القصَّة في سورة البقرة طريقة إغواء إبليس ومكائده، وعلى هذا ورد ﴿ تَبِعَ ﴾ من غير تعمُّلٍ ولا تكلُّفٍ ولا مشقَّة، بخلاف سياق قصة آدم في (طه) فإنَّه ساق فيها قوة كيده واستحكام حيلته حتى احتنك الكثير من ذرية آدم، فصار تمييز الحق لا يحصل إلا بمشقّةٍ وقوَّة معالجة وصبرٍ فناسبه ﴿ ٱتَّبَعَ ﴾ لأنها صيغة تنبئ عن تعمُّلٍ وتحميل نفس، فوقعت كلّ صيغة موافقة لسياقها من ذات القصَّة. انظر ملاك التأويل: ١ / ١٩٠، وهناك توجيهٌ آخر " وهو أنَّ القرآن في مكة (ومنه سورة طه) كان يتجه كثيراً نحو القوة والعنف لغلظة القوم وتماديهم في الضَّلال، بخلاف المدني (ومنه البقرة) الذي كان يميل إلى الهدوء والشَّرح والتفصيل ". خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: ١ / ٣٦٠.

وقوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾، ونداؤهم بأداة البُعد في آية الأعراف فيه إشارة لبعدهم عن الصَّواب وشرودهم عن الحقِّ، ومن ثمَّ يهتف بهم الرَّب ليرجعوا إلى طريق الهداية واتِّباع الحقِّ وما جاءت به جميع الرّسل هذا إذا كان الخطاب لجميع بني آدم، أمَّا إن كان الخطاب لأهل مكَّة ومن يلحق بهم فإنَّ في التعبير بصيغة الجمع ﴿ رُسُلٌ ﴾.

والمراد به واحدٌ هو رسول الله صلى الله عليه وسلَّم تعظيمٌ له وتفخيمٌ لشأنه ؛ لأنَّه خاتم الأنبياء ولا رسول بعده، وهو مرسلٌ إلى الخلق كآفَّة [١].

● وفي آية الأنعام المسوقة لبيان وظائف منصب الرسالة ﴿ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ جاء صدرها مصدَّراً بالتعبير بنون العظمة إيحاء بعظمة القدرة الإلهيَّة وهيمنتها ﴿ وَمَا نُرۡسِلُ ﴾ ؛ وذلك يأتي في مقامات الحديث عن امتنان الخالق سبحانه على عباده، ومن أعظم منن الله على عباده إرسال المرسلين مبشِّرين من آمن بهم وأطاعهم بالثواب الجزيل، ومنذرين من كذَّبهم وعصاهم بعقاب أليمٍ كما قال عزَّ ذكره: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ ﴾ [سورة مريم]، وأوثر في سياق بيان كيفية إرسال الله تعالى لرسله التَّعبير بصيغة المضارع

(١) انظر الفتوحات الإلهية: ٣ / ٣٠ – ٣١.

﴿نُرْسِلُ﴾ الدالّ على التَّجدُّد والتَّكرُّر في أزمنةٍ متجدِّدة؛ لبيان أنَّ ذلك أمرٌ مستمرٌ جرت عليه السنة الإلهيَّة [1]، ولكنه حدثٌ وقع في الماضي واستمرَّ زمناً ثم انقضى قبل زمن الإخبار عنه كون محمدٍ صلى الله عليه وسلَّم خاتم الأنبياء والمرسلين فيمنع أن يراد الإرسال في المستقبل، فهو من استعمال المضارع في موضع الماضي" أرسلنا"؛ إذ العدول حاصل هنا في دلالة المضارع على المضيِّ الذي استمرَّ زمناً وانقطع قبل الإخبار عنه ولم يستمر في المستقبل، فالمضارع ﴿وَمَانُرْسِلُ﴾ يدل على المضي؛ للدلالة على" أن إرسال محمد صلى الله عليه وسلم جارٍ على ما سنَّه الله من سنَّة إرسال الرسل، فعبَّر بالمضارع الدال على التَّجدُّد المستمرّ؛ ليبيّن تجدُّد تلك الصفة من البشارة والنذارة بتجدُّد الإرسال نفسه، وفيه بيان لدخول النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام في هذا الاعتبار"[2].

وقد جاء نظم الآية مؤكّداً بأسلوبٍ قويٍّ حاسم يسترعي الانتباه ويخاطب العقل والقلب معاً وهو أسلوب القصر من خلال النفي والاستثناء بـ﴿مَا﴾ و ﴿إِلَّا﴾ الذي يستخدم لإثبات حكمٍ معيَّنٍ لمذكورٍ ونفيه عمَّا عداه ؛ وذلك في الأمور التي هي مجال للشَّكِّ والإنكار وهي هنا تقرير حقيقة الرّسل ووظيفتهم، فإنَّ كفار مكَّة لم يقتنعوا برسالة رسول الله فطلبوا – جدلاً وخصومةً – معجزاتٍ خارقة اعتقاداً منهم أنَّ الرسول الحقّ لديه كامل القدرة على الإتيان بتلك المعجزات، فقلب الله عليهم اعتقادهم من خلال قصر إرسال الرُّسل على حال التَّبشير والإنذار، وإظهار أن ما يقترحونه ليس مما يتعلَّق بالرِّسالة أصلاً، والقصر

(١) تفسير أبي السعود: م ٢، ج ٣: ١٣٥.

(٢) بلاغة القرآن الكريم دراسة في أسرار العدول في استعمال صيغ الأفعال: ٢٠٠.

هنا قصر موصوف هو " إرسال الرسل " على صفة هي حال " التبشير والإنذار".

والمعنى. " إنهم بعثوا مبشرين ومنذرين لا قدرة لهم على إظهار الآيات وإنزال المعجزات، بل ذلك مفوَّضٌ إلى مشيئة الله تعالى وكلمته وحكمته " [(١)]، فالقصر هنا من أجل تصحيح اعتقاد المخاطبين.

● دائماً في الحال في النَّظم القرآنيّ ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ يأتي تقديم البشارة بما تحمله من معنى الترغيب والإقبال على الخير، على النِّذارة بما تحمله من معنى التَّهديد والوعيد، منها ما سبق، ومنها ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [سورة البقرة جزء آية: ٢١٣]، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾ [سورة البقرة] ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [سورة النساء]، ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الكهف]، ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ [سورة الإسراء]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الفرقان]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة سبأ]، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة فاطر]، ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾

(١) تفسير الفخر الرازي: ٤ / ٤٧.

[سورة فصلت] ؛ وسرُّ ذلك أنَّ " تقديم البشارة ؛ لأنَّها أبهج للنفس، وأقبل لما يُلقي النَّبي، وفيها اطمئنان المكلف والوعد بثواب ما يفعله من الطَّاعة " [1].

وفي هذا التّقديم دعوةٌ للمربِّين لاتِّباع منهج المرسلين في الترغيب والتَّحبيب لما يدعون له قبل الترهيب وتوجيه النَّقد.

● وتُرك ذكر المفعول به للأفعال في آيتي الأنعام والأعراف:﴿ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ ﴾ ﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ ﴾ تحفيزاً لتحقيق أقصى ما يمكن من الاتصاف بالإيمان والتقوى والإصلاح في شتى معانيها، ولو نصّ على ذكر المفعول به لفقد هذا المعنى العظيم، ولتقاصرت الهمم ولفترت العزائم عن الاستزادة من تحقيق معاني الإيمان والتقوى والإصلاح، وتكرار الدعوة للإصلاح في الموضعين فيه دلالة على عظم شأنه في الإسلام عند الله وجليل نفعه للأمَّة، فلا يكفي أن يُؤمن المؤمن ويتَّقي ربَّه في خآصَّة نفسه دون أن يشفع صلاح عمله بالإصلاح في المجتمع.

● ولما كانت فائدة إتيان الرّسل هي إصلاح النَّاس، لا نفع الرسل، عدل في آية الأعراف عن جعل فعل الشرط اتباع الرُّسل إلى جعله التقوى والإصلاح فقال: ﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ ﴾؛ إيماءً إلى حكمة إرسال الرّسل، وحضّاً على اتباعهم ؛ لأنَّ فائدته للأمم لا للرسل، فمدار الفلاح ليس مجرّد عدم التَّكذيب بل هو الاتقاء والاجتناب[2].

(١) البحر المحيط: ٢ / ٣٦٤، وانظر الجامع لأحكام القرآن: ٣ / ٢٣.

(٢) انظر الفتوحات الإلهية: ٣ / ٣١، والتحرير والتنوير: ٨ / ١٠٩.

الموقع الثاني: نفي الخوف والحزن عمَّن آمن بالله الإيمان الصحيح وعمل صالحًا من أهل الأديان السَّماوية:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [سورة البقرة].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [سورة المائدة].

الآيتان تقرِّران مبدأ عظيماً هو عدم عداوة الله لجنسٍ من الأجناس أو ملَّةٍ من الملل طالما آمن بالخالق، وصدَّق بالبعث والمعاد وعمل صالحاً، فالمؤمنون بالله من هذه الأمَّة المحمَّديَّة، والطوائف الذين كانوا قبل بعثة رسول الله من اليهود والنصارى ممَّن كانوا يدينون بالتوراة والإنجيل قبل نسخها وتحريفها والصابئين[1] الحنفاء المتَّبعين لملَّة إبراهيم عليه السَّلام، كلُّ من آمن منهم بالله واليوم الآخر على الوجه الصَّحيح الذي بيَّنه لهم نبيهم، وعمل عملاً صالحاً فما كان الله ليضيع إيمانهم بل ثوابهم ثابتٌ عند ربِّهم، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه من أهوال الآخرة، ولا حزن يصيبهم على ما فاتهم من حظوظ الدنيا،

(١) اختلف العلماء كثيراً في الصابئين، ورجَّح ابن تيمية أنهم صنفان: صنف باقون على فطرتهم حنفاء موحِّدون، ولا دين مقرر لهم يتَّبعونه وهؤلاء هم الذين أثنى الله عليهم في هاتين الآيتين، وصنف ابتدعوا الشِّرك بعد ذلك فصاروا مشركين. انظر الرد على المنطقيين: ٢٨٨، ووافقه ابن كثير في تفسيره: ١ / ١٠٠.

ولا يحزنون كما يحزن المقصِّرون على تضييع أعمارهم وفوات ثوابهم[1]، فلهم الأمن يوم يخاف النَّاس ويكون السّرور من نصيبهم حين حزن الناس يوم القيامة، وههنا وقفةٌ مع جمال النَّظم القرآني فيهما ولطائفه البلاغيَّة:

- **في البدء بالإيمان بالله وتأكيد موصوله بـ ﴿ إِنَّ ﴾ في كلتا الآيتين إشعارٌ بأنَّ الإيمان الصَّادق هو الذي يقود إلى الأجر العظيم الوارد في آخرهما، وفيه تكريمٌ للمؤمنين من أمَّة محمدٍ صلى الله عليه وسلَّم.**
- **يبرز في الآيتين مراعاة النظير حيث جمع النَّظم الكريم أسماء عدَّة طوائف وأديانهم " المؤمنون واليهود والنصارى والصابئة " وزاد في آية الحج " المجوس والمشركين" وفي ذلك تناسبٌ وتوافقٌ وائتلافٌ في نسقٍ بديعٍ متلاحم الأجزاء في شكله ومضمونه، والبداءة بذكر المؤمنين ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ؛ للاهتمام بشأنهم وإعلاءً لمكانتهم.**
- **جاء القصر في آية البقرة في موضعين:**

الموضع الأوَّل: قصر موصوف على صفة في قوله – جلَّ ذكره –: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ بتقديم المسند على المسند إليه، فالمقصور" الأجر" والمقصور عليه "كونه لهم " قصر إفراد لمن اعتقد اشتراك الكافرين بالله معهم في الأجر، وتأكيداً لحصول هذا الجزاء الحسن الذي وُعِدوه على الإيمان بالله والعمل

(١) هذا قبل بعثة رسول الله، وأما بعد بعثته للناس كآفة وختمه للرسالة فلا يقبل الله من أحد ديناً غير الإسلام، فالواحد من هذه الطوائف بعد مجيء الإسلام إذا دخل فيه صادقاً عاملاً صالحاً فله هذه الثواب الجزيل يوم القيامة.

الصَّالح جاء التَّعبير بلفظ الأجر ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ دون لفظ " الثَّواب "مثلاً ؛ لأنَّه الأوفق للمقام إذ لفظة " الأجر " هي ما يعود من جزاءٍ على العمل الصَّالح، ولا تقال إلا في النَّفع والخير دون الضُّرِّ [١]، فحصولهم على أجرهم الذي وعدوه – ووعد الله لا يتخلَّف – أمرٌ محقَّق وموثَّق تفضُّلاً منه سبحانه وتكرُّماً كما أنَّ حصول الأجير على أجره مقابل عمله أمرٌ مؤكَّد، بخلاف لفظة " الثَّواب" فإنَّها ما جُوزي به الإنسان على فعله من خيرٍ أو شرٍّ وإن كان الأكثر استعمالاً في الخير[٢]، وتقييده بـ ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ زيادة في توثيق هذا الوعد والعهد، والعنديَّة تُشعر بكونه في الآخرة متيقّن الحصول لا في الدُّنيا، والإضافة هنا إلى ﴿ رَبِّ ﴾ " مما يزيد الأجر تحقُّقاً ؛ لأن المضاف إليه أكرم الكرماء، فلا يفوت الأجر الكائن عنده"[٣].

وهذا القصر ممَّا اختصَّت به آية البقرة ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ دون آية المائدة، والعطف بالفاء مشعرٌ بالسَّببيَّة فهي سيقت لترتيب المسبَّب على السبب، فإنَّ هذا الأجر من الله مترتِّبٌ على الإيمان واليوم الآخر وعمل الصَّالحات، كما أنَّ هذه الزِّيادة يقتضيها المقام في سورة البقرة والتي سيق أكثر من نصفها للحديث عن اليهود وفسوقهم ومخازيهم وإجرامهم واعتدائهم على حرمات أنبياء الله فاستحقُّوا بذلك عقاب الله لهم الوارد في قوله تعالى:

(١) انظر المفردات في غريب القرآن: ١٢.

(٢) انظر المفردات في غريب القرآن: ١٠٨.

(٣) التحرير والتنوير: ١ / ٥٤٠.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [سورة البقرة]، ولما كان ذلك المقام مقام يأسٍ وقنوطٍ من رحمة الله لما حلَّ باليهود من ضرب الذِّلة والمسكنة والبوء بغضبٍ من الله ونقمته بات الخلف منهم يتخوَّفون على إيمان السَّلف، بل بلغ بهم اليأس أشدَّه فتوهمَّوا عداوة الله لجنس اليهود فكانت آية البقرة هذه بعدها بمثابة الاستثناء لمن كان إيمانه بالله واليوم الآخر صحيحاً وشفع ذلك بالعمل الصالح، وجاءت لإزالة ذلك الوهم الخاطئ، فأنصفت الصَّالحين من اليهود والنصارى وبيَّنت ثبوت أجر المخلصين المؤمنين من سلفهم ممَّن ماتوا وقد تمسَّكوا بالتَّوراة والإنجيل قبل أن تنسخ أديانهم ببعثة نبينا صلى الله عليه وسلَّم فهؤلاء لهم أجرهم لا يبخسون منه شيئا [1]، علاوة على ما فيها من تبشيرٍ لصالحي كلِّ الطَّوائف والملل، فاقترن الترغيب بالتَّرهيب في الآيتين، بخلاف آية المائدة فإنَّ سياقها في الحديث عن أهل الكتاب " اليهود والنَّصارى " وإغرائهم وترغيبهم في قبول الإسلام بدلالة قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ

(١) من متشابه القرآن الكريم في ضوء البلاغة العربية: ٨٠، ويعضِّد ذلك ما روته كتب أسباب النزول أن آية البقرة نزلت حين قصَّ سلمان الفارسي على رسول الله قصَّة أصحاب الدير الذين كان يتعبَّد معهم فقال عنهم رسول الله: " هم في النَّار "، فشقَّ ذلك على سلمان الفارسي فأنزل الله هذه البشارة في آية البقرة. انظر أسباب النزول: ٢٤ للواحدي، وتفسير الطبري: ١/٣٦٤، والعجاب في أسباب النزول: ٩٠ لابن حجر، وتفسير القرآن العظيم: ١/٩٩ لابن كثير.

ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [سورة المائدة]، وقوله تعالى قبلها مباشرةً: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [سورة المائدة]، فهي في مقام الدعوة إلى الإيمان بالله والحثّ والإغراء عليه وهذا لا يكون إلا في حال الحياة، وعليه فإنَّ المعنى في آية المائدة أن الواحد من هذه الطوائف الأربعة الكافرة بعد مجيء الإسلام إذا دخل في الإسلام صادقاً وعمل صالحاً فإنَّه يوم القيامة لا يخاف ولا يحزن، واختيار لفظ " الرب" وإضافته لضمير من آمن بالله ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ يُلقي في النفس اطمئناناً وثقة في تحقيق وعده الله لهم، فإنَّ لفظ الربوبية مشعرٌ بما تضفيه على الخلق من ألوان النعم والإحسان التي لا تحصى، وفيه لفت نظرٍ إلى تربيته سبحانه لخلقه ورعايته الدائمة لهم فلن يتخلَّى عنهم، وذلك كلّه ممَّا يستدعيه مقام استمالة القلوب وترغيبها وحثِّها على الطَّاعة.

والموضع الثاني: قصر صفةٍ على موصوف في قوله في آيتي البقرة والمائدة: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فالحزن المنفي "مقصور"، والمقصور عليه ضمير الغائبين ﴿هُمْ﴾ قصر إفراد لمن اعتقد أنَّ نفي الحزن شامل للمؤمنين والمشركين، فجاء تخصيص نفي الحزن عن المؤمنين بالله دون سواهم من المشركين، فأكَّد الله بالقصر في الموضعين في آية البقرة الحكم المستفاد من الجملة وهو اختصاص المؤمنين به بالأجر ونفي الحزن عليهم دون سواهم، وفي ذلك تعريضٌ باليهود وغيرهم من أهل الكتاب ممَّن سبق ذكرهم في الآية قبلها ممَّن قتلوا أنبياء الله وعصوا أمره واعتدوا حرماته، ويدَّعون أنَّهم أبناء الله وأحباؤه فأثبت الله لهم الخوف والحزن، ونفى عنهم الأجر، فباؤا بغضبٍ على غضب وانقلبوا بحسرتهم، فلعلَّ مقام الجدال والخصام مع اليهود – وهم أكثر النَّاس جدلاً بما أوتوه من علمٍ – في آية البقرة اقتضى القصر بموضعين واستدعى دحض مزاعمهما من خلالهما لئلا يحذوا أحد حذوهما [1].

● وظاهرٌ تشابه الآيتين مع قوله تعالى في سورة الحجِّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ حيث ذكر في البقرة والمائدة أربع

(١) ساق الله في سورة البقرة كثيراً من دعاوى أهل الكتاب الباطلة وجادلهم وأبطل دعاواهم العريضة ومنها أنهم إن عُذِّبوا فهي أيام قليلة(الآية ٨٠)، وأنه لن يدخل الجنة سواهم (الآية ١١١)، وأن الدار الآخرة عند الله خالصة لهم من دون الناس(الآية ٩٤).

طوائف، وفي آية الحجِّ ست طوائف، والتَّغاير بينها كامنٌ في تقديم المعطوفات في الجملة بعضها على بعض، باستثناء المؤمنين فيها جميعاً فهم الأحقُّ بالتَّقديم لشرفهم، أتبعه فيها جميعاً باليهود لأنهم أقدم تعريفاً وأسبق زماناً، ثم قدَّم في آية البقرة " النَّصارى" وهم أتباع عيسى عليه السَّلام ؛ لأنَّ النصارى مقدَّمون على الصابئين في الرُّتبة، فهم أهل كتابٍ وأقرب للمؤمنين لولا تبديلهم وتحريفه فقدَّمهم، ثم " الصابئين" لأنهم لا كتاب لهم، وفي آية الحجَّ قدَّم الصابئين؛ لأنَّهم مقدَّمون على النَّصارى في الزَّمان، فالصابئة أسبق وجوداً وزماناً، وراعى في آية المائدة المعنيين، فقدَّم الصابئين في اللفظ، وأخرَّهم في التقدير؛ لأنَّ التقدير الإعرابي: والصابئون كذلك، "وفي أمثالها يظهر لك إعجاز القرآن"(١)، والإسكافي يذكر أن التَّرتيب بين هذه الفرق يعود لأحد أمرين:

أحدهما: ترتيبٌ بحسب الكتب السَّماويَّة المنزلة على كلّ أمةٍ، وهذا ظاهرٌ في آية البقرة فقدَّم الذين آمنوا على اعتبار أن المراد بهم المؤمنون بما أُنزل على إبراهيم عليه السَّلام إذ صحف إبراهيم أسبق، ثم الذين هادوا؛ لأنَّ توراة موسى عليه السلام قبل إنجيل عيسى عليه السلام، ثم النَّصارى لأنهم أصحاب الإنجيل، فرَّتبهم على ما رتَّبهم عليه في بعثة الرِّسالة، ثم ذكر الصابئين؛ لأنهم لا كتاب لهم.

وأمَّا آيتا المائدة والحجِّ فالتَّرتيب فيهما بحسب الزَّمان، فقدَّم الصابئين على النَّصارى؛ لأنهم أسبق منهم زمناً فقد كانوا قبل عيسى عليه السَّلام، وهذا واضحٌ في آية الحجِّ لمجيء﴿ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ ﴾ بالنَّصب" فهو ترتيب الأزمنة الذي

(١) بصائر ذوي التمييز: ١ / ١٤٥، وانظر التحبير في علم التفسير: ٢٧٢.

لا نيَّة للتأخير معه ؛ لأنَّه لم يقصد في هذا المكان أهل الكتب؛ إذ كان أكثر من ذكر ممَّن لا كتب لهم وهم الصابئون والمجوس والذين أشركوا عبدة الأوثان، أمَّا آية المائدة فقدّم لفظاً ﴿ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ ﴾ ونُوي تأخيره معنى فرفع على الاستئناف، وإنما قُدِّم في اللفظ وأُخِّر في النّية ؛ لأنَّ التَّقدُّم الحقيقيّ التَّقدُّم بكتبه المنزَّلة على الأنبياء عليهم السَّلام[1].

● ويمكن القول أيضاً: إنه قدَّم المبتدأ ﴿ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ ﴾ في المائدة على خبر " إنَّ "، والتقدير: "والصابئون كذلك" ؛ لأنَّ الصابئين أشدّ هذه الفرق إيغالاً في الضَّلالة، واسترسالاً في الغواية، فهم عبدة الكواكب والنُّجوم، ويظنّ أنهم لا يستوون مع غيرهم من أهل الكتاب، فأُقحم الاسم المقطوع للإسراع في الدلالة والتَّنبيه على التَّساوي في الحكم[2].

ولبيان أنَّ حكمهم كحكم أهل الكتاب في ارتباط الجزاء " وهو نفي الخوف عليهم والحزن عنهم" بالشَّرط وهو" الإيمان بالله واليوم الآخر عن صدقٍ مع اقتران ذلك بالعمل الصالح "، فالكلُّ سواسية عند الله يوم القيامة، وهذا رأي الزمخشري وغيره بناء على أنَّ المراد بـ " الصابئين" قومٌ عدلوا عن دين اليهوديَّة والنَّصرانيَّة وعبدوا الملائكة والنجوم والكواكب فيقول: "..وفائدة تقديم ﴿ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ ﴾ التنبيه على أنَّ الصابئين يُتاب عليهم إن صحَّ منهم الإيمان والعمل الصَّالح، فما الظَّنّ بغيرهم ؟

(١) انظر درَّة التنزيل:١٠ – ١١، ووافقه غيره من العلماء انظر البرهان في متشابه القرآن: ١٢٧، وملاك التأويل: ٢١٩/١، وكشف المعاني: ١٠٠، وفتح الرَّحمن: ٣٠.

(٢) انظر إعراب القرآن وبيانه: ٢ / ٢٦٩، وخصائص التراكيب: ٢٧٥.

وذلك أنَّ الصابئين أبين هؤلاء المعدودين ضلالاً وأشدّهم غيّاً، وما سمّوا صابئين إلا لأنَّهم صبؤوا عن الأديان كلها أي خرجوا"[١].

وعليه فلا شكَّ أنَّ اليهود والنَّصارى أولى بالتَّوبة عليهم إذا صحَّ منهم الإيمان بالله بدخولهم في دين محمدٍ صلى الله عليه وسلَّم والانضواء تحت رسالته، ويقول الشيخ محمد عبده: "ولما كان هذا – أي اشتراك الصابئين مع اليهود والنصارى في الحكم – غير معروفٍ عند المخاطبين بهذه الآية، وكان الصابئون غير مظنّة لإشراكهم في الحكم مع أهل الكتب السَّماوية حسن في شرع البلاغة أن يُنبَّه إلى ذلك بتغيير نسق الإعراب"[٢] حيث عدل عن الإتباع بجعله مرفوعاً بالقطع عمَّا قبله، فجاء العطف من قبيل عطف الجمل لا من قبيل عطف المفردات.

● بقي أن أشير إلى أنَّ نوع الحكم المحكوم به على هذه الفِرق وهو خبر ﴿ إِنَّ ﴾ مختلف فإذا جاء في البقرة ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ وفي المائدة ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فلأنَّه مسبوق بالدَّعوة للإيمان بالله وعمل الصالحات ﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾، وهذا لا يكون إلا في حال الحياة ممَّن يقدر على الإجابة فينال هذا الثَّواب العظيم، أمَّا آية الحجِّ فالحال مختلف إذ السياق واردٌ عن حالهم يوم القيامة فجاء الجواب مختلفاً بإثبات الفصل بين مؤمنهم وكافرهم إما في الجزاء

(١) الكشاف: ١ / ٦٩٤، وانظر المطول: ١٤٠.

(٢) المنار: ٦ / ٤٧٧.

خيراً وشراً أو في المكان فيفصل بينهم ولا يجمعهم في مكانٍ واحد: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [1]، " وأُدخلت ﴿ على كلّ واحدٍ من جزأي الجملة لزيادة التأكيد"[2].

الموقع الثالث: نفي الخوف والحزن عمَّن أسلم وجهه لله وهو محسن:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [سورة البقرة].

هذه الآية الكريمة مرتبطةٌ بالآية الكريمة قبلها: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ [سورة البقرة]، فكلُّ طائفةٍ من اليهود والنصارى تُضلِّل الأخرى، فادَّعى كلٌّ منهم- غروراً وكذباً- اختصاص الجنّة بطائفته لا يدخلها غيرهم.

- فجاء افتتاح الآية بحرف العطف الواو ﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ عقداً للأسلوب بسياقه السابق في الآيات قبلها.
- والآية من اللف والنَّشر المجمل [3]، لفّ بين الفريقين أو القولين على سبيل

(١) خصائص التعبير القرآني: ٢ / ١٦١.

(٢) الكشاف: ٣ / ١٤٩.

(٣) هذه الآية شاهدٌ عند البلاغيين في مؤلفاتهم على اللف والنشر المجمل. انظر البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: ٣١٣، والتبيان في علم البيان: ٤٠١، والمطول: ٤٢٦، وشروح التلخيص: ٤ / ٣٣٣ وغيرها، والزمخشري أول من أشار لذلك في الكشاف: ١ / ٢٠٣.

الإجمال والإيجاز البليغ بجمع ما اشتركا فيه وهو مقولهم بنفي دخول الجنَّة لغير اليهود أو النصارى من خلال ضمير الجمع: ﴿ وَقَالُواْ ﴾ فإنَّ واو الجماعة يشتمل على فريقين مختلفين من أهل الكتاب نُسب إليهما قولين ولم يبيّن ما اختص به كل منهما من القولين ؛ ثقة بأن السامع يردّ إلى كلِّ فريقٍ قوله أو كلِّ قولٍ مقوله ؛ لوضوح المعنى، وأمناً من الإلباس ؛ والمسوّغ لهذا اللف ما عُلم من العناد والتَّعادي بين الفريقين والطائفتين، وتضليل وتكفير كلّ طائفةٍ للأخرى بحيث لا تشكّ في نجاة نفسها وضلال مخالفيها[1]، ولدلالة حرف العطف ﴿أَوْ ﴾ الدَّآل على تقسيم القولين وأن كل فريق لا يقول في حق الآخر أنه سيدخل الجنة، فالسامع يرجع كلّ قولٍ لقائله، فـ ﴿أَوْ ﴾ هنا" للتوزيع وهو ضربٌ من التقسيم الذي هو من فروع كونها لأحد الشيئين"[2]، ثم جاء النَّشر بذكره إجمالاً ﴿إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾.

والمعنى على النّشر: "وقالت اليهود: لن يدخل الجنَّة إلا من كان هوداً، وقالت النّصارى: لن يدخل الجنَّة إلا من كان نصارى".

- وأوثرت ﴿لَن ﴾ دون أدوات النفي الأخرى لإفادتها النفي المؤكد المستغرق لآماد طويلة من أزمنة المستقبل.
- وقدَّم " اليهود "على" النَّصارى" في المستثنى موافقة للأسبقيَّة في الزَّمن.

(١) انظر الكشاف:١/٢٠٣، وإرشاد العقل السليم:١/١٤٦، وبدائع التفسير: ١/٣٣٣، والإيضاح: ٤/٣٠.

(٢) التحرير والتنوير:١/ ٦٧٣، فـ ﴿أَوْ ﴾ من كلام الحاكي في حكايته، وليست من الكلام المحكي.

● والتَّعبير بالماضي ﴿إِلَّا مَن كَانَ﴾ يشي بعظيم ثقتهم واعتقادهم الجازم في قلوبهم بتحقُّق ذلك فأخرجوه مخرج المتحقّق الكائن، فمن لم تتحقَّق يهوديته أو نصرانيته لا مكان له في الجنَّة، عوضاً عن التعبير بالمستقبل" إلا من يكون".

● ولعلَّ السِّرّ في مجيء كلامهم على اللف بواسطة واو الجماعة ليشير لاتِّفاق اليهود والنصارى في التخليط على المؤمنين بهذا القول وإلقاء الشّبه في قلوبهم، فهم مجتمعون على القول به وهو ما صرَّحت به الآية قبلها، باتفاقهم على المؤمنين بغرض إخراجهم من الإيمان إلى الكفر: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة البقرة]، فالكبر بلغ بهم حدَّ أن جعلهم يحكمون بقصر دخول الجنة على أحد الفريقين، وليست لأحدٍ غيرهم، فالأسلوب جاء باللف من خلال جمع المتعدد بواو الجماعة مشاكلة لاتفاقهم في الغرض والمقصد لما علم من تعاونهم بالكراهية للمؤمنين، كما أن أسلوب اللف والنشر فيه إثارة وتشويق يعمل على جذب انتباه المخاطبين وإعمال فكرهم، فيشتاقون لمعرفة صاحب كلِّ قولٍ ومقوله، ممَّا يجعل المعنى يرسخ في الذهن عند وروده ويتأكَّد، مع ما فيه من الإقناع باعتبار أنَّ أسلوب اللف والنَّشر يشرك المتلقِّي في فهم المراد من خلال تخيّله وتصوُّره ؛ ثقةً به وبفهمه الصَّحيح، وذلك من وسائل الإقناع.

● والإيجاز بديعٌ وظاهرٌ في الآية من خلال اللفِّ والنَّشر كما سبق، ومن خلال المستثنى منه الذي لم يُذكر في الكلام لأجل تفريغ الاستثناء وتقديره:" أحد " ؛ طلباً لعموم النَّفي، ومن خلال حرف التَّقسيم﴿أَوْ﴾ الذي كان تعبيراً عن المقول

المحذوف من القولين بأقلّ عبارة، فـ ﴿أَوْ﴾ " قرينةٌ على تعيين كلٍّ من خبري ﴿كَانَ﴾ لبقية الجملة المشتركة التي قالها كلّ فريقٍ بإرجاع ﴿هُودًا﴾ إلى مقول اليهود، وإرجاع ﴿نَصَٰرَىٰ﴾ إلى مقول النَّصارى"[(١)].

● وقد ردّ الله عليهم ضلالهم وأبطل تخليطهم بجملة اعتراضيَّة مبدوءةٍ باسم الإشارة أشير به لتلك المقولة الفاسدة، فقال: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ فهم لشدَّة تعلُّقهم واعتقادهم بهذه المعتقد ولعظيم إحساسهم به في نفوسهم أصبح محسوساً يُشار إليه، ويمكن أن يكون الإخبار عن هذه الأمنية الوحيدة " وهي أنَّ الجنَّة لا يدخلها غيرهم " بصيغة الجمع وقد كان الأصل إفراده ؛ " لأنها لما كانت أمنية كلِّ واحدٍ منهم صارت إلى أمانيّ كثيرة" [(٢)]، كما أنَّ في التَّعبير عن المفرد بصيغة الجمع إيحاءً بتناقض أهواء اليهود والنَّصارى وتشتّت رغباتهم وتعدُّد أمانيهم وتباينها دون اتِّفاقٍ، فكلّ فرقةٍ تعتقد دخولها الجنَّة وحدها دون غيرها ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [سورة الحشر: ١٤].

وقد أشار ابن المنيّر إلى أنَّ السر في العدول عن المفرد (أمنية) إلى الجمع (أماني) في الآية الكريمة هو: "أن اليهود والنصارى لشدَّة تمنِّيهم لهذه الأمنية ومعاودتهم لها، وتأكُّدها في نفوسهم وإلحاحهم على تحقُّقها جمعت ؛ ليفيد جمعها أنها متأكدة في قلوبهم، بالغة منهم كلَّ مبلغٍ، حتى كبرت تلك الأمنية الزائفة وتنامت في أفئدتهم فاستحالت إلى أماني، والجمع يؤدِّي ذلك

(١) التحرير والتنوير: ١ / ٦٧٣.

(٢) التحرير والتنوير: ١ / ٦٧٤.

وإن كان مؤدَّاه واحداً، ووجه إفادة الجمع في مثل هذا للتأكيد أنَّ الجمع يفيد بوضعه الزيادة في الآحاد فنقل إلى تأكيد الواحد، وإبانة زيادته على نظرائه نقلاً مجازيَّاً بديعاً"[1]، مبيِّناً أن ذلك مجرّد أمانيّ يتمنّونها دون برهانٍ، والتَّعبير بالأماني يشير إلى أنّها مجرّد خواطر باطلة ومواعيد كاذبة لا تتعدّى التّمني الذي يستحيل وقوعه ويتعذّر حصوله، والاعتراض يفيد تقوية الكلام الذي ورد في أثناء سياقه، ويُشعر بذمّ كلا الفريقين.

● **ولما كانت الجملة الخبريَّة الأولى مثيرة لتساؤلٍ عن صحَّة ما زعمه اليهود والنصارى، جاء الجواب عن هذا السؤال المقدَّر ودَحْض زعمهم مفصولاً ولم يُعطف بالفاء أو الواو على سبيل الاستئناف البيانيّ الذي هو " شبه كمال الاتصال " استغناءً بهذه الصلة المعنويَّة التي تُغني عن العاطف ؛ لأنَّ ما بين الجملتين كما بين السؤال والجواب، فقال تعالى:﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ ؛ جرياً على طريقة القرآن في حكاية المحاورات بحذف الحرف العاطف كراهية لتكرير العاطف بتكرير أفعال القول[2].**

---

(١) حاشية ابن المنير بهامش الكشاف: ١ / ٢٠٣.

(٢) نبَّه الشيخ عبد القاهر على أنَّ الذي نراه في التنزيل من لفظ " قال "مفصولاً غير معطوف جاء على ما يقع في أنفس المخلوقين من السؤال كما جرت به العادة في الكلام بين النَّاس. انظر دلائل الإعجاز: ٢٤٠، ويمكن أن يكون الفصل في الآية عن الجملة السابقة لها ؛ لاختلافهما خبرا وإنشاء، فإن الأولى خبرية، وهذه إنشائية مصدَّرة بالأمر، فبينهما غاية الانقطاع.

وعلى ذلك فالاستئناف البيانيُّ يعدّ من مظاهر مراعاة حال المخاطبين وتتبّع مشاعرهم واستيعاب أحاسيسهم وما يقع في نفوسهم من الكلام السابق من تساؤلاتٍ افتراضيَّة متوقَّعةٍ لا منطوقةٍ، فطُلبوا بالدليل الصادق والبرهان الواضح لدعواهم اختصاصهم بدخول الجنَّة، فالمدَّعي سواء ادَّعى نفياً أو إثباتاً لا بدَّ له من بيِّنةٍ تُثبت صدقه، فبُدئت الآية بالأمر لنبيِّه صلى الله عليه وسلَّم أمر تشريف وتكريم ﴿قُلْ﴾ ليعلم المخاطبون بأن الخبر المأمور به من قِبل من لا يردّ أمره، والذي لا يأتي غالباً إلا في سياق خطأ يجب تقويمه على وجه السرعة أو خصومةٍ يجب الرّدّ عليها، للدِّلالة على أن المأمور بقوله ذو شأن وأهمِّيّة، فلو أنه قال: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ لكان قرآناً يتلى، ولربَّما لم يسمعه اليهود والنّصارى، ولكن مع تصديره بالأمر ﴿قُلْ﴾ دلَّ على وجوب تبليغهم وتأكُّد إسماعهم هذا الرّدّ المبطل لمزاعمهم المضللة بأن يقول ما ذكر بلسانه الشريف ؛ تعجيزاً لهم على أسلوب التحدي المعجز.

● والأمرُ بعده ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ للتعجيز والتَّهكّم، تبكيتاً وتكذيباً لمقالتهم، فهم غير مستطيعين لإحضار هذا الدليل الصادق الذي يُوقع اليقين بصحَّة دعواهم فيظهر كذبهم، ويكشف زعمهم أمام المؤمنين فيزدادوا يقيناً بصدق ما جاء به رسولهم – صلى الله عليه وسلم– بكذب وبهتان الفريقين من أهل الكتاب.

● وفي التَّعبير بجملة الشرط ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ توبيخٌ وتقريعٌ لهم، وتعريضٌ بكذبهم وأنهم لا يصدقون في أقوالهم، واختيار أداة الشرط ﴿إن﴾ التي تستعمل في الأمر المشكوك فيه دون ﴿إِذَا﴾ مشعرٌ بالشَّك في صدقهم

وضعف موقفهم في إثبات برهان ما ادَّعوا، ويمكن القول – أيضاً – إنَّ استعمال أداة الشرط ﴿إن﴾ المفيدة للشَّك في صدقهم مع القطع بكذبهم وعدم صدقهم ؛ لاستدراجهم حتى يعلموا أنهم غير صادقين حين يعجزون عن الإتيان بالبرهان، فكلُّ اعتقادٍ لا يقيم معتقِده دليل اعتقاده فهو اعتقاد كاذب ؛ لأنه لو كان له دليل لاستطاع التَّعبير عنه ومن باب أولى لا يكون صادقاً عند من يريد أن يروج عليه اعتقاده [1]، "وهذا أهدم شيء لمذهب المقلِّدين، وأنَّ كلَّ قولٍ لا دليل عليه فهو باطل غير ثابت"[2].

● وطلباً للإيجاز في هذه الفاصلة جاء جواب الشرط محذوفاً لدلالة السياق عليه ووضوحه وتقديره: "إن كنتم صادقين في قولكم أنَّ الجنة مختصَّة بكم فهاتوا برهانكم " فإن فعلوا كانوا صادقين، وإلا فهم من زمرة الكافرين، وقد تُرك ذكر متعلّق لفظة ﴿صَٰدِقِينَ﴾ وهو قوله: " في قولكم أنَّ الجنَّة مختصَّة بكم"؛ تهميشاً لذكر هذه الدّعوى الباطلة، ولعدم الاعتداد بهذه المزاعم الفاسدة.

● ولما كانت دعوى اليهود والنّصارى مؤكَّدة بحرف النّفي ﴿لَن﴾ الذي يدلّ على قوَّة النَّفي وتأكيده [3].

---

(١) التحرير والتنوير: ١/٦٧٤.

(٢) الكشاف: ١/٢٠٤.

(٣) ممَّن أشار لإفادة" لن " لتأكيد النفي وتقويته في الجملة الفعلية الزمخشريُّ في الكشاف:٢/١١٣، وانظر شرح المفصل: ٨ / ١١١ لابن يعيش، والطراز: ٢ / ٢٠٨.

وفي سياق أسلوب القصر بالنَّفي والاستثناء المشعر بكبرهم وعنادهم واعتقادهم الجازم بصحّة هذا الادِّعاء القبيح، وأنَّ دعواهم هذه ستلاقي الإنكار والشَّك من المخاطبين بها، جاء استهلال آية الرّدِّ عليهم بحرف الجواب ﴿ بَلَىٰ ﴾ [1]، التي أبطلت نفيهم، ونفته نفياً مؤكَّداً يترتّب عليه إثبات ضدّه، بإثبات ما نفاه اليهود والنصارى من دخول غيرهم الجنة، والإيجاز ظاهرٌ في سياق الآية من وجهين:

الأول: أن حرف الجواب ﴿ بَلَىٰ ﴾ دالٌّ على سؤالٍ مقدَّر طُوي ذكره للعلم بمعناه لدلالة لفظ الجواب عليه، وتقديره: هل يدخل الجنة غير اليهود أو النصارى أم لا ؟

والثاني: جملة الجواب بعدها، وتقدير جوابها الذي لم يُذكر طلباً للإيجاز: "بلى يدخل غيرهم الجنة "، فأكّدت الآية اختصاص دخول الجنة بالمؤمنين ممَّن سيأتي وصفهم وبيان حالهم في الجملة الشَّرطيَّة بعدها، وفي

---

(١) ألمح البقاعي في نظم الدرر: ١ / ٢٢١ إلى مناسبة هذه الآية لما قبلها والتشابه اللفظي في التعقيب على المقالتين، فلما ردَّ على اليهود والنصارى دعواهم عدم مسِّ النار لأجسادهم جاء الرّدّ مصدَّراً بحرف الجواب ﴿ بَلَىٰ ﴾ فقال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾، ودعواهم هنا في دخول الجنَّة دون غيرهم جاء إبطال مقولتهم – أيضاً – مصدَّراً بالحرف ذاته، فهو في الموضعين لإبطال النفي المجرّد المشتمل على ادعاءات باطلة ومزاعم ضآلة، وتقرير جوابه وتثبيته وإزالة ما قد يتوهم من شكٍّ أو تردّد في تصديق الجواب، فهي تتضمن نفي النفي الذي هو بالمعنى المنطقي ينتج الإثبات.

ذلك ترغيبٌ لهم بسلوك طريق المؤمنين بإسلام النفس لله والإحسان في العبادة لا يشرك به غيره، وتعريضٌ بحالهم المشينة التي هم عليها والتي تتعارض مع حال من يدخل الجنَّة.

● وأسلوب الشرط ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ يتضمّن عموم أداة الشرط ﴿ مَنْ ﴾، والذي يوحي بأنَّ حكم الله تعالى بدخول الجنة لكلِّ من خضع لأمر لله فأطاعه، وأخلص له عمله دون شريك، وعمل صالحاً من جميع البشر، فله ثواب أعماله، ولا خوف عليه في حاضره ولا فيما يستقبله من أمر الآخرة، ولا هو يحزن على ما مضى ممّا يتركه من حظوظ الدنيا، كما أنَّ في أسلوب الشَّرط تشويقاً للمخاطبين لمعرفة الجواب المترتِّب عليه، فإنَّ سماع الشرط يوقظ جذوة اللهفة لسماع جوابه حتى إذا ما جاء قرَّ في نفوسهم، وبادروا الامتثال والاستجابة له لينالوا ذلك الفضل العظيم.

● والتَّعبير بالوجه في سياق الطّاعة التّامة والاستسلام المطلق لعبودية الله ﴿وَجْهَهُۥ ﴾ على سبيل المجاز المرسل لعلاقة الجزئية، فعُبِّر بالجزء وأراد الكلّ، فإسلام الوجه ليس المراد به الإقبال على عبادة الله سبحانه بالوجه دون غيره، بل المراد به إسلام النّفس والإذعان الكلِّي بجميع القوى لطاعة الله وعبادته كما أمر الله إبراهيم عليه السَّلام بقوله ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [سورة البقرة]، وسرُّ اختيار الوجه دون بقية الأعضاء ؛ لأنه مجمع المشاعر ومجمع الحواس التي هي محلّ المسؤولية والتكليف، وأكرم جوارح الإنسان حيث موضع السُّجود وأشرف ما يُرى من أعضائه، "وهو أعظمها عليه

حرمةً وحقّاً، فإذا خضع لشيءٍ وجهُهُ الذي هو أكرم أجزاء جسده عليه فغيره من أجزاء جسده أحرى أن يخضع له"[١].

● واللام الداخلة على لفظ الجلالة﴿ لِلَّهِ ﴾ تُشعر بضرورة الإخلاص في عبودية العبد وخضوعه بكلِّ جوارحه لربِّه دون شائبة شركٍ.

● ودلَّت اسميَّة الجملة مع صيغة اسم الفاعل ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ على أنَّ اتصافهم بالإحسان على الدّوام والاستمرار في جميع الأحوال، فهي جملة حالية "مبيِّنة"[٢].

فيها دلالة أن استحقاق دخول الجنَّة دون خوفٍ ولا حزنٍ لا يكفي فيه مجرَّد الإسلام بدون إحسانٍ وهو " أن تعبد الله كأنَّك تراه فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك"[٣]، ويرى أبو حيان أنَّ الجملة الحالية "مؤكِّدة "جاءت قيداً مؤكِّداً من حيث المعنى" لأنَّ من أسلم وجهه لله فهو محسن"[٤].

● والفاء العاطفة المقترنة بجواب الشرط ﴿ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ ﴾ دآلَّة على التَّرتيب مع التعقيب، وموحية بمعنى السَّرعة في حصول الأجر.

● والتَّعبير بالأجر ﴿ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ ﴾ كناية عن دخول الجنة ؛ وتصويره بذلك للإشعار بقوة ارتباط حصول هذا الأجر والثواب بتمام انقياد الجوارح والتّذلّل لله مع الإحسان، فلا يُنال الأجر ولا يُستحقّ بدونهما ؛ والتعبير بـ " الأجر " مشعرٌ

(١) جامع البيان عن آي القرآن: ٢/٥١١، وانظر الجامع لأحكام القرآن: ٤٦٣ للقرطبي.

(٢) انظر الكشاف: ١ / ١٧٨.

(٣) من حديثٍ رواه مسلم في كتاب الإيمان، رقم الحديث (٩٣): ٢٤.

(٤) البحر المحيط: ١ / ٥٦٤.

أنه لا بد من عمل ينال المحسن به أجر دخول الجنة، لا أماني لا أصل لها كما يعتقد اليهود والنَّصارى.

● وتقديم الخبر الجار والمجرور ﴿ فَلَهُۥٓ ﴾ على المبتدأ ﴿ أَجْرُهُۥ ﴾ مفيدٌ للقصر بقصر الأجر على كونه لمن أسلم وجهه لله وهو محسن، قصر موصوفٍ على صفة.

● ثم جاء الوصف بالعنديَّة مع إضافتها إلى اسمه الرَّبِّ ﴿ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ ؛ لأنَّه الأشرف لمقام المؤمن والأكرم لمقام المحسن قربه من ربه، مع إضافة اسم الربّ ﴿ رَبِّهِۦ ﴾ إلى ضمير " من أسلم" لتُضفي عظيم التشريف ومزيد العناية والتكريم بالمؤمن، فقدَّم إثبات الأجر له عند ربِّه على نفي الخوف والحزن عنه؛ لأنه آنس للقلب وألذّ للنَّفس، وفي تكرير الإسناد وتقييد الأمر بقوله: ﴿ فَلَهُۥٓ ﴾ ﴿ أَجْرُهُۥ ﴾﴿ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ من التأكيد والتَّشريف ما لا يخفى.

● ولمزيد اللطف بعباد الله المؤمنين بشَّرهم بعد نعيم الجنَّة بالأمن التَّام والسرور العظيم بقوله: ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾، فضمن لهم نعيم الجنَّة، وزيادة على ذلك بشَّرهم بأنَّهم آمنون مما يخافونه من المحذور فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا هم يحزنون على ما مضى مما يتركونه، وتلك السَّعادة في أكمل صورها، وقد حلَّل الثعالبي الإيجاز في هاتين الجملتين المختصرتين بقوله: "فقد أدرج فيه ذكر إقبال كلّ محبوب عليهم، وزوال كلّ مكروه عنهم، ولا شيء أضرّ بالإنسان من الحزن والخوف؛ لأنَّ الحزن يتولَّد من مكروهٍ ماضٍ أو حاضرٍ، والخوف يتولَّد من مكروه مستقبل، فإذا اجتمعا على

امرئ لم ينتفع بعيشه، بل يتبرَّم بحياته، والحزن والخوف أقوى أسباب مرض النَّفس، كما أنَّ السُّرور والأمن أقوى أسباب صحّتها، فالحزن والخوف موضوعان بإزاء كلّ محنة وبليَّة، والسرور والأمن موضوعان بإزاء كلّ صحَّةٍ ونعمةٍ هنيَّة"[١].

● ويلاحظ في سياق النَّظم أنه جاء على الإفراد ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ مراعاةً للفظ ﴿ مَنْ ﴾، ثم جمع ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ مراعاةً للمعنى[٢]، فعدل عن الإفراد إلى الجمع وكان ظاهر السِّياق أن يقال: " ولا خوف عليه ولا هو يحزن " ولعلَّ السِّر في ذلك " هو التعظيم فمن يجمع بين إخلاص الوجه لله تعالى والانقياد له سبحانه وبين إخلاص العمل لله تعالى أي من يجمع بين نقاء العقيدة وإخلاص العمل فإنه يستحيل إلى جماعات كثيرة، وكأنه أمة بنفسه في آثارها ومآثرها، فقد نزلت الكثرة أي الزيادة في الحدث منزلة الكثرة في العدد، فيصير بها الفرد جماعة، والمفرد جموعاً، ولا غرو في هذا فالعبد المستسلم المنقاد لأمر ربه المخلص له في كل أعماله، والمستحق لرضوان الله تعالى في ميزان الإسلام يضاهي أمة بأسرها"[٣].

(١) الإعجاز والإيجاز: ١٠.

(٢) انظر إملاء ما منّ به الرحمن: ١ / ٥٨.

(٣) نظرات بلاغية في آيات قرآنية: ٤٥.

● وتقديم المسند إليه " الضمير " على الخبر الفعلي بعد النفي في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يفيد الاختصاص وتقوية الحكم، قصر صفةٍ على موصوف، قصراً حقيقيّاً تحقيقيّاً ؛ لأنَّ النفي في الآية نفي عام، فالحزن في ذلك اليوم منفيٌّ عن المؤمنين بالنسبة لجميع من عداهم من اليهود والنَّصارى وغيرهم، ولعلَّه قصر قلب لمن اعتقد من اليهود أو النَّصارى أنهم هم أهل الجنَّة لا يدخلها أحد غيرهم، وأنَّ الخوف والحزن منفيّ عنهم دون سواهم، فردّ الله دعواهم وأبطلها من خلال أسلوب القصر بتقديم ما حقّه التأخير فخصَّص الأجر بالمؤمنين دون غيرهم، وخصَّص انتفاء الحزن بمن أسلم وجهه لله وهو محسن؛ بشارةً لهم، وتعريضاً وذمَّاً لغيرهم.

الموقع الرَّابع: نفي الخوف والحزن عن المؤمنين الذين عملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزَّكاة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [سورة البقرة].

الآية الكريمة أنموذجٌ قرآنيٌّ رائع تضافرت فيه جميع ألفاظها وتراكيبها في سبيل إبراز الغرض من نظمها، فالغرض من سياق الآية هو ترغيب النَّاس في الإيمان بالله تعالى، وحثِّهم على عمل الصَّالحات، وبعث همَّتهم على إقام الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة، وإظهار عظيم فضل تلك الأعمال في الآخرة، فحين تشتدّ كروب يوم القيامة يكونون في طمأنينة تآمَّة لا يشوبها شائبة من خوفٍ، ولا يلحقها حزن، فهم قد صاروا إلى ما هو خير لهم، وذلك مطلبٌ ترنو إليه قلوب

المؤمنين وتصبو إليه أفئدتهم، وهنا وقفة مع براعة الألفاظ والتَّراكيب في هذا البيان القرآنيّ الفريد:

● يطالعنا ابتداءً افتتاح الآية بحرف التَّوكيد المثقَّل ﴿ إِنَّ ﴾ ممّا زاد من قوَّة الإسناد في الجملة، وجعله في منزلة تكرير المسند إليه والمسند مرَّتين، وهذا الأسلوب من شأنه أن يشعر بالاهتمام بما بعدها، ويثبّت الخبر في النّفوس، ويقرِّر فيها فضل الإيمان بالله وعمل الصَّالحات بما فيها الصَّلاة والزَّكاة، ويرفع الشَّك عن المرتاب بما سيق له في الكلام من مؤكِّدات تقضي على الرَّيب وتنزع التَّردد، واختيرت الجملة لتكون " اسميَّة " دلالة على الدَّوام والاستمرار، ومع أن الكلام كلام الله الذي لا يأتيه باطل من بين يديه ولا من خلفه، إلا أنَّه اشتمل على مؤكِّدات أصابت موقعها في النَّظم فبثَّت البشرى بهذا الوعد الكريم المؤكد في نفوس المؤمنين.

وجاء المسند إليه موصولاً اسميَّاً ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ من بين سائر المعارف، وصلته مكونة من أربعة أفعال تجمع الدِّين كلَّه: الإيمان بالله وعمل الصَّالحات وإقام الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة ﴿ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ مقصوداً منها التعميم والتعليل، والإيماء إلى وجه بناء الخبر على المبتدأ، فالفطن الذَّكي إذا سمع الموصول وصلته أدرك ما سيأتي بعده من الفضل والكرامة والعاقبة الحميدة المدَّخرة لهم وأن ثمة بشارة عظيمة تنتظرهم هي ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾، ففيه تشويقٌ وإثارةٌ للتطلُّع إلى جزائهم الحسن بما لا يخفى، وهذا قريبٌ ممَّا يسمِّيه البلاغيُّون " براعة الاستهلال "، كما أنَّ فيه إيذاناً بسموِّ رتبة الإيمان وعمل الصالحات وخصوصاً أداء الصلاة والزَّكاة وكونها مناطاً لما نالوه من السَّعادة والسُّرور.

وقد بدأ برأس الأمر وهو الإيمان بما أوحاه الله الذي يعني الوحدانية وعبادة الله وحده لا شريك له.

وأتبعه بالعمل الصالح ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فترك ذكر الموصوف وتقديره: "وعملوا الأعمال الصالحات " ؛ طلبا للإيجاز، وللإشارة إلى أن المهم هو الصفة وهي صلاح العمل، وتعريف ﴿ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ بـ " أل " الجنس يفيد العموم والشمول، فأيُّ عملٍ صالحٍ مرتكزٍ على الإيمان يجعله أهلاً لنيل هذا الأجر.

ثم عطف عليه ﴿ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ من عطف الخاص وهو " إقام الصلاة وإيتاء الزكاة " على العام وهو "عمل الصالحات "لدخولهما في عمل الصالحات دخولا أوليًّاً، وفي عطفهما عليه ترغيبٌ وإشعارٌ بأهميتهما عند الله على سائر الأعمال الصالحة، وإشارة لاختصاصهما بأمور لا توجد فيها، ومن ثم نصَّ عليهما دون سائر الأعمال حتى كأنهما شيئان مغايران لعمل الصالحات؛ تنزيلاً للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات.

والجمع في صلة الموصول بين الإيمان وعمل الصَّالحات كإقام الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة ﴿ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ بواو العطف في نسقٍ واحدٍ وبصيغة المضيِّ يُوحي بوجوب اقتران الإيمان بالأعمال الصَّالحة التي تدلّ على صدق المؤمن في إيمانه وكماله وتحقُّق وقوعه ممَّا يستحقُّ به الموعود الحسن والوعد الكريم في ختام الآية، فليس من المقبول تأخير العمل عن الإيمان أو إرجاءه عنه، والمعتزلة يفهمون من هذه الآية وأمثالها أن نيل الجنة لا بد فيه من العمل الصالح مع الإيمان بالله، فالإيمان وحده لا

ينجي عندهم ؛ لأنَّ المعلق على أمرين أو أكثر يكون عدماً عند افتقاد أحدهما، وهذا خلاف مذهب أهل السنة والجماعة فإنَّ الإيمان يُنجي، والآية إنما تذكر الكامل من المؤمنين الذي جمع بين الإيمان والعمل الصالح ومنه إقام الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة فنال هذه الدَّرجة العالية.

- **وإقامة الصَّلاة التي هي أعظم الأعمال البدنية يكون بتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها، والتعبير بالإقامة ؛ فيه إشعار بالمداومة والاستمرار عليها دون تهاون أو تكاسل.**
- **ولما ذكر الوصلة بينهم وبين الخالق ذكر إحسانهم للخلائق فذكر " إيتاء الزَّكاة " وهو أفضل أنواع الإنفاق في سبيل الله، وقد جاء اقتران الصَّلاة بالزَّكاة أو الإنفاق عموماً في القرآن الكريم بما يربو على ثلاثين موضعاً [(١)]، ومادة الإيتاء ممّا كثر استعمالها في القرآن الكريم في سياق النَّفقة الواجبة كالزَّكاة لما تُشعر به في أصل مادتها الاشتقاقيَّة من معنى السُّهولة، قال الراغب: " أتى: الإتيان مجيء بسهولة، ومنه قيل للسيل المارّ على وجهه: أتيٌّ وأتاويٌّ..." [(٢)]، فالتَّعبير بفعل " الإيتاء" يوحي بطيب نفوس المؤمنين بإخراجهم لزكاة أموالهم ونفقاتهم عن رضا، وهذا أوفق لسياق مدحهم والثناء عليهم، كما أنها توحي بمعنى الإخلاص في الإنفاق يقول البقاعي: " وفي الاقتصار في الزكاة على الإيتاء إشعارٌ بأنَّ إخراج المال على هذا الوجه لا يكون إلا من الإخلاص"[(٣)]،**

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: مادة(ز ك و) و (ص ل و) و (ن ف ق).

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٨ – ٩.

(٣) نظم الدرر: ١/ ٣٢٤.

كما أن مادة الإيتاء تشعر بمعنى الاهتمام بإيصال الزكاة لمستحقيها يقول السيوطي:" الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله ؛ لأن الإعطاء له مطاوع تقول: أعطاني فعطوت، ولا يقال في الإيتاء: آتاني فأتيت، وإنما يقال: آتاني فأخذت، والفعل الذي له مطاوع أضعف في إثبات مفعوله من الفعل الذي لا مطاوع له"(١)، وهذا من الدِّقَّة المتناهية في اختيار الألفاظ القرآنيَّة وتنزيلها منازلها الملائمة لمواقعها من السِّياق.

● وقد جاء ترتيب الآية على حسب الألزم للمكلَّف، فبدأ بالإيمان بالله ؛ لأنَّه لازم للمكلَّف دائماً، ثم العمل الصالح، ثم بالصَّلاة لأنها لازمة في أكثر الأوقات، ثم بإيتاء الزَّكاة لأنها لازمة في بعض الوقت.

● ويلاحظ أنَّ الأسلوب القرآنيّ هنا الدال على صفة الإيمان وذكر المؤمنين بأشهر صفاتهم قد جاء بالتَّعبير بصيغة الماضي دون المضارع في صلة الموصول فقال: ﴿ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ بما يشي أنَّها أحداث وقعت وتحقَّقت، ولكن ليس المراد أنها في الماضي فحسب دون غيره من الأزمان، فمن يأتي من المؤمنين بعد نزول الآية يدخل فيها إلى يوم القيامة، فهي أفعال ماضية تفيد الماضي والاستمرار والآتي في المستقبل، ولكن إيثار الماضي هنا في مقام مدح الله وثنائه للمؤمنين ؛ لأنه يوحي بالتَّحقّق والثبوت وتمكُّن تلك الأوصاف منهم في المستقبل، فكأنَّ امتداحهم في هذا السياق يأتي من كون الإيمان بالله وعملهم للصالحات بما فيها إقام الصلاة وإيتاء الزَّكاة

(١) الإتقان في علوم القرآن: ١/٥٧٢.

متحقِّقٌ وراسخٌ فيهم كالجبلَّة، ثم إن تلك الأوصاف والأفعال المتحقِّقة تستلزم أن يكون صاحبها مستمرِّاً عليها؛ إذ من يحدث الكفر بعد الإيمان لا يصح أن يُمتدح بالإيمان، وهذه الطّريقة في التعبير بالماضي المفيد للاستمرار هي من الكناية إذ دلّ اللفظ على لازم معناه، فإنَّ صيغة المضيّ الواقعة في مثل هذه التراكيب وإن دلَّت على المضيّ حقيقة فغنَّه يلزم من مضيها الاستمرار في الزَّمانين الآخرين فيكون كناية، ويمكن أن يكون من المجاز المرسل بعلاقة الجزئيَّة إذ عبَّر عن الكلِّ بجزئه؛ فإنَّ الماضي المعبَّر به عن الأزمنة الثَّلاثة المستمرَّة جزء من تلك الأزمنة.

- وتكرار الإسناد في قوله: ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ موحٍ بالتأكيد وقرب وقوعه، وذكر العنديَّة ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ لتعظيم شأن ذلك الأجر وتعظيمه.
- ويوحي التعبير بوصف الربوبية ﴿ رَبِّهِمْ ﴾ بالتأييد والنُّصرة ومزيد الرعاية والعناية واللطف والتدبير، والإضافة فيه لضمير المؤمنين دالة على التكريم لهم ومزيد الفضل والرِّعاية بهم، فهو ربّهم المحسن إليهم بتربيتهم الذي ربَّاهم وأنعم عليهم في الدنيا بنعمٍ لا تحصى.
- والملحوظ أنَّ جزاء المؤمنين هنا عُرِّي من دخول الفاء التي تربط بين المبتدأ والخبر برباط السَّببيَّة فقال جلَّ ذكره: ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾، ولعلّ طرحها هنا تنبيهاً منه سبحانه إلى أنَّ إثابتهم واستحقاقهم هذا الأجر لا بسبب إيمانهم وأعمالهم الصَّالحة بل هو بفضل الله تعالى ورحمته على ما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: " ما من أحدٍ يُدخله عمله الجنَّة، فقيل: ولا أنت يا رسول الله ؟، قال: ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني ربِّي

برحمةٍ"[1].

● وبُدئ بنفي الخوف عنهم ؛ لأنه الأهم، فخوف الإنسان من مجهول وعالمٍ خفيٍّ ينتظره أشدّ من خوفه على ما مضى، فقدَّم سبحانه نفي الأشق عنهم لزيادة تثبيتهم والرَّبط على قلوبهم، ولنشر الطمأنينة والأمان في نفوسهم.

الموقع الخامس: نفي الخوف والحزن عن المنفقين أموالهم في سبيل الله تعالى:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾ [سورة البقرة].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾ [سورة البقرة].

هاتان الآيتان ترشدان إلى العلاقة المثلى بين عباد الله الصالحين والمال الذي هو عصب الحياة، فهم يستغرقون أوقاتهم كلها في الإنفاق والسخاء في سبيل الله ليلاً ونهاراً، سرَّاً وجهراً، شريطة ألا يصاحبه ما يبطله ويذهب ثوابه من المنّ أو الأذى، فجاء ثوابهم عظيماً بالأمن يوم الوعيد، وبانتفاء الخوف عليهم والحزن عنهم فلهم طيب العيش في الدُّنيا والآخرة.

وعند التَّأمّل في ظلال الآية ومعناها، وبإمعان الفكر في نظمها نجد من اللطائف البيانيَّة التي تنفذ المعاني إلى القلوب في صورة مؤثرة:

---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، رقم الحديث(٧١١٣): ١٢٢٦.

من اللافت بدايةً أنَّ صياغة صدر الآيتين ونهايتهما متشابهٌ، فسيكون الحديث عنهما واحداً:

● كلتا الآيتين جاءتا مفصولتين عمَّا قبلهما؛ لما بينهما مع ما قبلهما من كمال الاتصال، وضابطه أن تُنزَّل الثانية من الأولى منزلة نفسها لذا يجب ترك العاطف إذ كيف يصحُّ عطف الشيء على نفسه، فالآيتان قبلهما تتحدَّثان عن فضل الإنفاق في سبيل الله وثوابه العظيم ؛ وهاتان الآيتان مسوقتان بما يفيد ذلك المعنى، فهما في بيان صفة النَّفقة المتقبَّلة وآدابها ووقتها.

● فقد عبَّر في صدر كلتا الآيتين بالاسم الموصول ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ ؛ لما في الاسم الموصول وصلته من تعليلٍ وتعميمٍ وإطلاقٍ يوسِّع دائرة من ينطبق عليه هذا الوصف الوارد في صلة الموصول ليتناول نماذج كثيرة، ولأن في الصلة ثناء عليهم بمحبتهم لنفع الناس بالمال الذي هو عزيز على النفس، وفيها إشارة إلى وجه بناء الخبر على المبتدأ.

● إيثار التَّعبير القرآنيّ عن الإنفاق في سبيل الله بالفعل المضارع في صلة الموصول ﴿يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ ﴾ استحضارٌ لهيئة المنفق وجهاده بالنفقة من ماله في سبيل الله على شِدَّة حبِّه له، وإيذانٌ بحدوث النفقة منهم وتجدُّد العطاء وقتاً بعد وقت ومرة بعد مرة كلما طُلب منهم وفور قيام دواعيه، فلا يبالون أن ينفقوا على أيَّة حالٍ طلباً لتزكية نفوسهم وتطهيرها من الشُّحِّ والبخل، يقول الزركشي: " ومن هذا يعرف لم قيل:﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ ﴾، ولم يقل: "المنفقين " في غير موضعٍ ؟

وقيل كثيراً: " المؤمنون "و" المتَّقون "؛ لأنَّ حقيقة النَّفقة أمرٌ فعليٌّ شأنه الانقطاع والتَّجدُّد، بخلاف الإيمان فإنَّ له حقيقةً تقوم بالقلب يدوم مقتضاها وإن غفل عنها."[1]، فكلَّما تجدَّد فعل الإنفاق من المنفقين وحدث فإنَّ ثوابه يتجدَّد ويحدث تبعاً له.

● والتَّعبير عن إنفاقهم بصيغة الجمع ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ ﴾ يشي بمسارعتهم وتسابقهم في العطاء المغدق، وتنافسهم على البذل وإهلاك المال في وجوه البر، مما يشي بأنه أضحى جبلَّة في نفوسهم، وخصلة قائمة في طبعهم، وفي ذلك حفزٌ لهمم المنفقين واستحثاثٌ لعطائهم.

● وفي نسبة الأموال إليهم وإضافتها لهم ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾ مع أنَّ المال مال الله وهبه لهم وهم مستخلفون فيه فلم يُضفه لذاته العليَّة على الأصل ؛ إيماءٌ إلى سماحة نفوسهم بالنَّفقة، وسخائهم في البذل والعطاء، فمع تعبهم ونصبهم في تحصيله وشدَّة حبِّهم له إلا أنَّهم يجودون به في وجوه البِّرّ طيِّبةً به نفوسهم دون مُكرهٍ لهم على النَّفقة، كما أنَّ فيه من المعاني أنَّ ذلك المال المنفق مدَّخرٌ لهم عند ربِّهم وهو المال الحقيقيّ المملوك لهم.

● وتقييد النَّفقة في الآية الأولى بقوله: ﴿ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أخرج ما لم يكن كذلك، فإنَّ من لم يقصد بنفقته وجه الله فأراد السُّمعة والرّياء وحبّ الثَّناء فليس له عند الله من الثواب شيء، بل سيحاسب على نفقته وإن أنفق المال الكثير؛ إذ قبول الأعمال موقوفٌ على سلامة النيَّة وخلوصها من المكِّدرات، ومن الملاحظ أنَّ هذا القيد قد جاء في الآية قبلها: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ

(١) البرهان في علوم القرآن: ٤ / ٥٩.

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وتكراره هنا تأكيد لشأنه وإشعار بأهمِّيته[١]؛ فإنَّ الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم.

● وسبيل الله المراد به طاعته، فعبَّر عن طاعة الله بالسبيل من باب الاستعارة التَّصريحيَّة، فقد استعير السبيل للطَّاعة ؛ بجامع الوصول إلى المراد في طمأنينة في كليهما، وحذف المشبه وأقيم المشبَّه به مقامه على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة.

● وفي الآية الثانية عَطَفَ على الصِّلة وموصولها قوله: ﴿ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى ﴾ وفيه عطف للعام على الخاص ؛ لأنَّ المنّ جزءٌ من الأذى، فإنَّ المنّ أن يُعدِّد المنفِق بالقلب أو اللسان على المنفَق عليه إحسانه ويريه أنه اصطنعه وأوجب عليه حقّاً ويطلب منه مقابلته[٢]، والأذى أعمّ وأشمل فهو يشمل الأذيَّة القوليَّة والفعليَّة يشعر المنعم عليه بالتَّفضّل عليه أو يذكره لغيره، وإنما قدَّم المنَّ لكثرة وقوعه[٣]، وكلاهما فيه مرارةٌ وإذلالٌ واستعبادٌ تأباها النفوس الكريمة لشِدَّة وطأة المنِّ والأذى عليها " فالله حظر على عباده المنّ بالصَّنيعة، واختصّ به صفة لنفسه ؛ لأنّه من العباد تكديرٌ وتعييرٌ، ومن الله سبحانه وتعالى إفضالٌ وتذكيرٌ"[٤]، وتنكير المنِّ والأذى ﴿ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى ﴾ للتَّقليل؛ والحكمة في ذلك تنبيهاً على أنَّ القليل من المنِّ والأذى يُبطل ثواب

(١) انظر التحرير والتنوير: ٢ / ٤٢.

(٢) الكشاف: ١ / ٣٩٣.

(٣) تفسير أبي السعود: ١ / ٢٥٨.

(٤) بدائع التفسير: ١ / ٤١٩.

النَّفقة ويحبط أجر العطيَّة ويمحقها، وإذا نُهي عن القليل منهما فإنَّ الكثير أشدّ نهياً وأعظم محاسبةً يوم القيامة [1]، وتوسيط كلمة ﴿ وَلَآ ﴾.

في قوله: ﴿ وَلَآ أَذًى ۙ ﴾ " للدلالة على شمول النَّفي لاتباع كلِّ واحدٍ منهما"[2].

● ويرد سؤالٌ منطوقه: لماذا جاء عطف الجملة بحرف البُعد ﴿ ثُمَّ ﴾، وما السِّر البلاغيّ وراء تخصيصه بهذا الموقع دون الواو أو الفاء ؟

يجيب الزمخشري عن ذلك من جهة أن فيه إظهاراً لعلوِّ رتبة المعطوف على المعطوف عليه وتباين المنزلتين بينهما فيقول: "ومعنى ﴿ ثُمَّ ﴾ إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المنِّ والأذى، وأنَّ تركهما خير من نفس الإنفاق"[3].

وعلى هذا القول فإنَّ في الحرف استعارة باستعارته من معناه الأصلي وهو تباعد الأزمنة وتراخي الوقت، لمعنى مجازي هو الدِّلالة على التَّفاوت في الرُّتبة والمكانة بين الإنفاق وترك المنِّ والأذى والبُعْد بينهما في الدَّرجة [4]، فهي هنا للتراخي الرُّتبي المفيد أنَّ ما بعدها أعلى في الرّتبة ممَّا قبلها، يقول ابن عاشور

---

(١) لعظيم خطورة " المنِّ والأذى " في محق أجر النَّفقة التفت السياق القرآنيّ من الغيبة في هذه الآية التي أثنى الله فيها على تاركي المنِّ والأذى إلى الخطاب الصريح المباشر بالنَّهي عنه في الآيات بعدها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٤]، مبالغةً في تأكيد النَّهي عنه.

(٢) تفسير أبي السعود: ١ / ٢٥٨.

(٣) الكشاف: ١ / ٣٣٩، وانظر تفسير البيضاوي: ١ / ١٣٨.

(٤) انظر تفسير أبي السعود: ١ / ٢٥٨، وروح المعاني: ٣ / ٣٣.

معلِّلاً لدافع الزمخشري حول إثبات التَّجوّز في حرف المهلة: " ﴿ ثُمَّ ﴾ للترتيب الرتبي لا للمهلة الزمنيَّة؛ ترفيعاً لرتبة ترك المنّ والأذى على رتبة الصَّدقة؛ لأنّ العطاء قد يصدر عن كرم النفس وحبّ المحمدة، فللنّفوس حظّ فيه مع حظّ المعطَى، بخلاف ترك المنّ والأذى فلا حظّ فيه لنفس المعطِي، فإنَّ الأكثر يميلون إلى التَّبجّح والتطاول على المعطَى، فالمهلة في ﴿ ثُمَّ ﴾ هنا مجازيَّة ؛ إذ شُبِّه حصول الشيء المهم–في عزَّة حصوله– بحصول الشيء المتأخّر زمنه، وكأنَّ الذي دعا الزمخشري إلى هذا أنه رأى معنى المهلة هنا غير مراد ؛ لأنّ المراد حصول الإنفاق وترك المنّ معاً"[(١)].

وزاد الأمر توضيحاً د. محمد الخضري من خلال التَّأمّل في الغرض من هذه الآية، والآيةِ قبلها[(٢)].

فنصَّ على أنَّ الغرض من الآية قبلها هو تعظيم ثواب الإنفاق في ذاته وبيان عظيم أجر المنفق عند الله ومضاعفته لثوابه إلى سبعمائة ضعفٍ بل إلى أضعافٍ كثيرة، وليس بعد هذا التعظيم لعمل المنفِق حاجة إلى زيادة حثٍّ وإغراء، وأمَّا الآية التي معنا فإنَّ الغرض الأصيل منها هو الدَّعوة إلى إخلاص الإنفاق في سبيل الله، والحثُّ على تنقيته من شوائب ما يُبطله ويُذهب بأجره من المنِّ على الفقراء وإيذائهم، ومن هنا استعير معنى التراخي والمهلة في

(١) التحرير والتنوير: ٢ / ٤٢.

(٢) هي قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة].

﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على بُعد المرتبة والمفاضلة بين المتعاطفين، "وكأن الله يقول: أرأيت إلى هذا الإنفاق الذي يضاعف الله أجره هذه المضاعفة، لا قيمة له ما لم يكن خالصاً من الرّياء، نقيَّاً من المنِّ والإيذاء، بل هذه الصَّدقة التي عظَّمها الله تعالى ورفع شأنها تتضاءل وتتطامن حتى تصبح الكلمة الطيبة أعظم منها إذا ما صحبها منٌّ أو أذى ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ [سورة البقرة]، وليست المفاضلة بين القول الطيب والصَّدقة المشفوعة بالأذى مفاضلة بين حسنٍ وأحسن منه، ولكنَّها مفاضلة بين الطيب والخبيث"(١).

ولابن المنيِّر رأيٌ في هذه الاستعارة التَّبعية خلاصته أنَّه استعار تراخي زمن وقوع الفعل الذي هو حقيقة ﴿ثُمَّ﴾ لتراخي زمن بقائه ؛ للدَّلالة على دوام المعطوف وثباته واستمراره، فيقول: " وعندي فيها وجهٌ آخر محتمل في هذه الآية ونحوها وهو الدلالة على دوام الفعل المعطوف بها، وإرخاء الطّول في استصحابه، فهي على هذا لم تخرج عن الإشعار ببُعْد الزَّمن، ولكن معناها الأصلي تراخي زمن وقوع الفعل وحدوثه، ومعناها المستعارة إليه دوام وجود الفعل وتراخي زمن بقائه..أي يدومون على تناسي الإحسان وعلى ترك الاعتداد به والامتنان، ليسوا بتاركيه في أزمنةٍ إلى الإذاية وتقيد المنن بسببه ثم يتوبون"(٢).

(١) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم: ٢٤٩.

(٢) حاشية ابن المنير على هامش الكشاف: ١ / ٣٣٩.

والذي حمل ابن المنيِّر على هذا الرَّأي اعتقاد أنَّ السّياق يأبى حمل ﴿ثُمَّ﴾ على حقيقتها، فلجأ لهذا الرأي في إجراء الاستعارة بين زمن وقوع الفعل وتراخي زمن بقائه، منظِّراً لهذا الرَّأي بحرف " السّين " حيث ورد قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السَّلام: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة الشعراء]، فحرف " السين " هنا لا يحمل على حقيقته وهو تراخي زمان وقوع الهداية؛ لأنَّ الآية الأخرى ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ [سورة الشعراء] تعارض هذا، وحتى لا يكون بينهما تعارض يتعيَّن حمل " السين" على دوام الهداية الحاصلة له وتراخي بقائها وتمادي أمدها.

● ويمكن حمل﴿ثُمَّ﴾ على حقيقتها وإبقاؤها على معناها الأصلي وهو الإشعار ببُعْد الزمن والتَّراخي بين المعطوف والمعطوف عليه في الزَّمان، فتفيد دوام وجود الفعل وتراخي زمن بقائه، وهذا أكمل في امتداح المنفقين الذين لا يستطيع الزَّمن مهما طال بهم أن يحبط أجر نفقتهم، لاستيفائهم شرط استحقاقه وهو ترك المنّ والأذى حتى وإن تطاول العهد بالنَّفقة، وعليه تكون للتَّراخي الزَّمني على أصل وضعها، يقول ابن القيِّم في نكتة العطف بهذا الحرف: "ونبَّه بقوله:﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ على أنَّ المنّ والأذى ولو تراخى عن الصَّدقة وطال زمنه ضرّ بصاحبه، ولم يحصل له مقصود الإنفاق، ولو أتى بالواو، وقال: ولا يتبعون ما أنفقوا منَّاً ولا أذى، لأوهمت تقييد ذلك بالحال، وإذا كان المنّ والأذى المتراخي مُبطلاً لأثر الإنفاق مانعاً من الثَّواب، فالمقارن

أولى وأحرى"[1].

ووافقه الإمام محمد عبده في حملها على الحقيقة من جهة أنَّ كمال المدح لهؤلاء المنفقين جاء لاستيفائهم شرط استحقاقه وهو طول الزَّمن بين نفقتهم واستصحابهم لترك المنِّ والأذى حتى وإن بدا تبدُّلٌ وتغيُّرٌ من أحوال المنفَق عليهم تجاههم بالنُّكران والجحود ؛ إذ طول الزَّمن كفيل بتغيير نوايا المنفِقين ونفوس المنفَق عليهم فقال: "قد يشكل على بعض الناس التعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ التي تفيد التراخي، مع العلم بأنَّ المنّ أو الأذى العاجل أضرَّ وأجدر بأن يجعل تركه شرطاً لتحصيل الأجر، وجوابه أنَّ من يقرن النَّفقة بالمنِّ والأذى أو يتبعها أحدهما أو كليهما عاجلاً لا يستحقّ أن يدخل في الذين ينفقون في سبيل الله أو يوصف بالسَّخاء المحمود عند ربِّه، وإذا كان من يمنّ أو يؤذي بعد الإنفاق بزمنٍ لا يعتدّ الله بإنفاقه ولا يأجره عليه، ولا يقيه الخوف والحزن، أفلا يكون المتعجِّل به أجدر بذلك ؟ بلى، وإنما الكلام في السَّخيِّ الذي ينفق في سبيل الله مخلصاً متحرِّياً للمصلحة والمنفعة، لا باغياً جزاء من ينفق عليه ولا مكافأة، ولكن قد يعرض له بعد ذلك ما يحمله على المنِّ والأذى المحبطين للأجر، كأنَّه يرى ممَّن كان أنفق عليه غمطاً لحقِّه أو إعراضاً عنه، وتركاً لما كان من احترامه إيَّاه، فيُثير بذلك غضبه حتى يمنّ أو يؤذي"[2].

● ومن اللافت أنَّ صيغة النفي وقعت بلفظ المضارع ﴿لَا يُتْبِعُونَ﴾ الدَّال على التجدّد والحدوث، فهو مشعرٌ أنَّ تناسي الإحسان وترك الامتنان يتجدّد

(١) بدائع التفسير: ١ / ٤١٩.

(٢) تفسير المنار: ٣ / ٥٢.

ويحدث منهم كلما دعت دواعيه وظهرت أسبابه، فهم في مجاهدةٍ للنَّفس والشيطان بترك المنِّ والأذى لئلا يبطل ثواب نفقتهم.

● وفي الآية الثانية استوفي جميع حالات الإنفاق بواسطة الطباق بين الليل وضده النهار، والسّرُّ وضدّه العلانية، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾، فلحرصهم على الخير يعمون الأوقات ويستغرقون الأزمنة، ويستجمعون الأحوال وطرق الإنفاق كلها بالصَّدقة، فإذا نزلت بهم حاجة محتاجٍ عجَّلوا قضاءها ولم يتعلَّلوا بوقتٍ ولا حالٍ، وفي الآية ترتيبٍ بديعٍ جاء في نسق الآية، فقدَّم الوقت الذي تكون الصدقة فيه أفضل وهو " الليل" على "النهار"، فالليلُ معينٌ على الإسرار وأبعد عن خواطر الرياء، ولما كانت " صدقة السّرّ " أعظم وأفضل حالاً قدّم حالة " الإسرار "على " الإعلان"؛ إذ فيها استبقاء لبعض حياء المتصدَّق عليهم، فالتَّقديم هنا للشَّرف بالفضيلة يقول أبو حيان: " قدَّم الوقت الذي كانت الصدقة فيه أفضل، والحال التي كانت فيها أفضل"[(١)]، ويقول البقاعي: " وقدَّم من المتقابلين ما كان أقرب إلى الإخلاص اهتماماً به ؛ دلالة على فضله"[(٢)]، فلمَّا قدَّم الليل قدَّم السِّرّ لأنه به أنسب، والعلانية بالنَّهار أظهر، مع الإشعار بعموم حالات الإنفاق وفي كلِّ الأوقات.

● وتقييد فعل النَّفقة بالحال ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ وهما متقابلان مشعرٌ بعموم النفقة في جميع الأحوال، وكذا لو جاء الكلام مطلقا لشمل الأحوال كلها، إلا

(١) البحر المحيط: ٢ / ٧٠١.

(٢) نظم الدرر: ٤ / ١٧.

أنه مع الإطلاق قد يتوهم منه أنهم ينفقون في حال العلانية فحسب، وكذا الاقتصار على أحد القيدين يفهم منه أن الآخر غير مراد ؛ لذا كان لا بد من ذكر القيدين جميعا الذي يتحصل منه الثناء ودفع التوهُّم مع الإشعار بتعاملهم مع خلق الله بالشَّفقة والإحسان، ففي هذين القيدين من المدح والثناء ما ليس في الإطلاق، وقد جاء هذا القيد في خمسة مواضع من القرآن الكريم قُدِّم فيها السِّرُّ على العلانية؛ هي قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة الرعد]، ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة إبراهيم]، ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [سورة النحل] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة فاطر]، ويرى بعضهم أن المراد بالسِّر الصَّدقة المسنونة، والعلانية هي المفروضة [1].

● ولما كان عمل المنفقين تفريج الكروب وإدخال السَّعادة في قلوب عباد الله بأموالهم نبَّه تعالى على غاية السَّعادة والسرور والطّمأنينة لهم؛ جزاءً لهم بجنس عملهم: بإثبات الأجر الحسّيّ لهم ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ حيث يقبل نفقاتهم وينمِّيها لهم إلى أضعافٍ كثيرة يرونها عياناً يوم القيامة كما في الآية قبلها ؛ ولما

(١) انظر تفسير أبي السعود: ٥ / ٢٨١.

كان ظاهر عمل المنفقين أنهم يجمعون مالهم لمنفعة غيرهم بيَّن وأكَّد أنَّه ﴿لَهُمْ﴾ لا لغيرهم فتقديم الخبر ﴿لَهُمْ﴾ على المبتدأ ﴿أَجْرُهُمْ﴾ للقصر أي: لهم الأجر لا لغيرهم، وفي تكرير الإسناد وتقييد الثَّواب بأنَّه ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ تأكيد على أنَّه على الله لا على أحدٍ سواه مع ما فيه من تعجيل المسرَّة إلى نفوسهم بأنَّ لهم أجراً عند ربِّهم، وفي اصطفاء لفظ الرّبوبيَّة في هذا النَّسق المضاف إلى ضمير المنفقين ﴿رَبِّهِمْ﴾ دلالة على الخلق والإيجاد والاختصاص والتربية والولاء، مما يحيط المقام بالرعاية والعناية، ويحيط الموقف بالتكريم والأمان والتشريف، مع ما يقتضيه هذا من العمل الخالص لوجه الله تعالى وحده.

وبإثبات الأجر المعنويّ النَّفسيّ ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ " فلا خوف عليهم في الدَّارين من لحوق مكروهٍ من المكاره، ولا هم يحزنون لفوات مطلوبٍ من المطالب قلَّ أو جلَّ أي لا يعتريهم ما يوجبه، لا أنه يعتريهم ذلك لكنهم لا يخافون ولا يحزنون، ولا أنه لا يعتريهم خوف وحزن أصلا بل يستمرون على النشاط والسرور كيف لا ؟ واستشعار الخوف والخشية استعظاما لجلال الله وهيبته واستقصارا للجدِّ والسَّعي في إقامة حقوق العبودية من خواص الخواص والمقرَّبين، والمراد بيان دوام انتفاء الخوف والحزن، لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر في الجملة الثانية مضارعاً، لما أنَّ النفي وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام"[(١)].

(١) تفسير أبي السعود: ١ / ٢٥٨.

● وتنكير الخوف في سياق النَّفي ﴿وَلَا خَوْفٌ﴾ يفيد العموم والشمول مع التقليل، فلا يلحقهم أدنى خوفٍ ولا أقلَّه فضلاً عمَّا هو فوقه، " ورُفع ﴿وَلَا خَوْفٌ﴾ في نفي الجنس إذ لا يتوهّم نفي الفرد ؛ لأن الخوف من المعاني التي هي أجناس محضة لا أفراد لها" [1]، وقدَّم انتفاء الخوف على نفي الحزن ؛ لأن انتفاء الخوف فيما هو آتٍ أكثر من انتفاء الحزن على ما فات ؛ ولذلك أبرزت الجملة الأولى مصدَّرة بالنّكرة التي هي أدلّ في باب النَّفي، وأُبرزت الجملة الثَّانية مصدّرة بالمعرفة.

● وتقديم المسند إليه المسبوق بالنَّفي ﴿وَلَا هُمْ﴾على الخبر الفعليّ ﴿يَحْزَنُونَ﴾ يفيد التَّخصيص مع تقوّي الحكم أي هم لا يحزنون وإنما غيرهم.

● والملحوظ في الآية الأولى أنه تُرك دخول الفاء في خبر الاسم الموصول فقال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

وفي الآية الثانية جاء النَّسق بإدخال الفاء على الخبر فقال: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مع أنَّ صوغ المبتدأ وهو الموصول واحدٌ؛ فالفاء في الآية الثانية صلة للتأكيد عند النَّحاة ؛ وذلك لوقوعها بين جزئي كلامٍ "المبتدأ والخبر" يرتبطان ارتباطاً معنويَّاً لا يحتاج إلى رابطٍ لفظيٍّ، ولكن مجيئها في الكلام يؤدِّي ارتباطاً خاصَّاً زائداً عن ارتباط الخبر بالمخبر عنه ؛ فالفاء فيها دلالة بيِّنةٌ على الترتيب والتَّسبيب، وتؤذن بأنَّ استحقاق الأجر بعدها مرتبط بالوصف السَّابق عليها، هذا ما صرَّح به الزمخشري فقال: "فإن قلت: أي فرقٍ بين قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ وقوله فيما بعد: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾.

(١) التحرير والتنوير: ٢ / ٧٨.

قلت: الموصول لم يُضمَّن ههنا معنى الشَّرط، وضمَّنه ثمَّة.

والفرق بينهما من جهة المعنى أنَّ الفاء فيها دلالة على أنَّ الإنفاق به استحقَّ الأجر، وطرحها عارٍ عن تلك الدِّلالة"[(١)]، فكما تدخل الفاء في جواب الشَّرط فإنه يصح إدخالها في خبر الموصول ؛ للتَّنبيه على تسبُّب استحقاق الأجر والمثوبة على الإنفاق في سبيل الله ليلاً ونهاراً سرَّاً وعلانيةً، وعلَّل البيضاوي لترك الفاء وكان مقتضى الظَّاهر إدخالها حيث تضمَّن الموصول معنى الشَّرط ولكنه عدل عن ذلك فقال: "لعلَّه لم يدخل الفاء فيه، وقد تضمَّن ما أسند إليه معنى الشَّرط ؛ إيهاماً بأنَّهم – أي: المنفقين– أهل لذلك، وإن لم يفعلوا فكيف بهم إذا فعلوا"[(٢)].

وزاد أبو حيان في بحره المحيط الأمر توضيحاً من جهة أن الآية التي تُرك ذكر الفاء فيها أريد إخراج الخبر فيها مخرج الشيء الثابت المفروغ منه، فقال: "والجملة من قوله:﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ خبر، ولم يُضمَّن المبتدأ معنى اسم الشرط، فلم تدخل الفاء في الخبر، وكأن عدم التضمين هنا ؛ لأن هذه الجملة مفسرة للجملة قبلها[(٣)].

---

(١) الكشاف: ٣٣٩/١، وانظر تفسير البيضاوي: ١٤٢/١، والتحرير والتنوير: ٧٧/٢.

(٢) تفسير البيضاوي: ١ / ١٣٨، ووافقه الألوسي في روح المعاني: ٣ / ٣٣ بأنَّ هؤلاء المنفقين مستحقّون للأجر لذواتهم وما ركز في نفوسهم من نيَّة الخير، و لم يوافقهما أبو السعود على هذا التعليل بقوله: " وأما إيهام أنهم أهل لذلك وإن لم يفعلوا فكيف بهم إذا فعلوا فيأباه مقام الترغيب في الفعل والحث عليه ". تفسير أبي السعود: ١ / ٢٥٨.

(٣) يقصد قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ =

والجملة التي قبلها أخرجت مخرج الشيء الثابت المفروغ منه، وهو تشبيه إنفاقهم بالحبَّة الموصوفة، وهي كناية عن حصول الأجر الكثير، فجاءت هذه الجملة كذلك، أُخرج المبتدأ والخبر فيهما مخرج الشيء الثابت المستقر، الذي لا يكاد خبره يحتاج إلى تعليق استحقاقه بوقوع ما قبله، بخلاف ما إذا دخلت الفاء فإنها مشعرة بترتّب الخبر على المبتدأ واستحقاقه به"[1]، وقد أفاد أبو السعود من مجمل تلك الآراء فقال: "وتخلية الخبر عن الفاء المفيدة لسببيَّة ما قبلها لما بعدها للإيذان بأنَّ ترتّب الأجر على ما ذكر من الإنفاق، وترك اتباع المنّ والأذى أمرٌ بيِّنٌ لا يحتاج إلى التَّصريح بالسببية"[2].

فالآية التي عريت عن الفاء وُصف المنفقون فيها بأعظم وأبلغ الصِّفات من جهة " التَّصريح بإخلاص نفقتهم لله تعالى"، ثم التَّنصيص على " أنهم لا يتبعون نفقتهم منًّا ولا أذى" وهذه درجةٌ عاليةٌ في سماحة النَّفس واعتيادها على هذا العمل الجليل حتى أَلِفَته، وجادت به سخيَّة نشطة، وكانت ﴿ثُمَّ﴾ دليلاً على أنَّ هذا الوصف أبلغ من الإنفاق ذاته، بما دلَّت عليه من التَّفاوت الرتبي ؛ إيماء إلى أنَّ الجود عن سماحةٍ ورضا يحولان بين المنفق وبين اتباع نفقته بما يبطلها هو أعظم ما في الإنفاق، فكان هذا دليلاً بيِّناً على ثبات أجرهم واستحقاقه حتى لم يعد للفاء المؤكدة للاستحقاق مكان"[3]، ويلفت ابن القيِّم

= سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَاللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَاللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

(١) البحر المحيط: ٢ / ١٩٠.

(٢) تفسير أبي السعود: ١ / ٢٥٨.

(٣) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم: ١٤٢.

إلى نكتةٍ لطيفة في ذكر الفاء التي تدل على التعقيب والمسارعة في النفقة دون إبطاء، فيقول: "وتأمَّل كيف جرَّد الخبر هنا عن الفاء فقال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وقرنه بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فإنَّ الفاء الداخلة على خبر المبتدأ الموصول أو الموصوف تفهم معنى الشَّرط والجزاء، وأنَّه مستحقّ بما تضمَّنه المبتدأ من الصلة أو الصِّفة، فلمَّا كان هنا يقتضي بيان حصر المستحقّ للجزاء دون غيره جرَّد الخبر عن الفاء ؛ فإنّ المعنى أنَّ الذي ينفق ماله لله، ولا يمنّ ولا يؤذي هو الذي يستحقّ الأجر المذكور، لا الذي ينفق لغير الله، ويمنّ ويؤذي بنفقته، فليس المقام مقام شرط وجزاء، بل مقام بيان للمستحقِّ دون غيره.

وفي الآية الأخرى ذكر الإنفاق بالليل والنهار سرَّاً وعلانيةً فذكر عموم الأوقات، وعموم الأحوال، فأتى بالفاء في الخبر ليدلّ على أنَّ الإنفاق في أيّ وقتٍ وجد من ليلٍ أو نهارٍ، وعلى أي حالةٍ وجد من سرٍّ وعلانية، فإنّه سبب للجزاء على كلّ حالٍ فليبادر إليه العبد، ولا ينتظر به غير وقته وحاله، ولا يؤخر نفقة الليل إذا حضر النَّهار، ولا نفقة النهار إلى الليل، ولا ينتظر بنفقة العلانية وقت السرّ، ولا بنفقة السِّرّ وقت العلانية، فإنّ نفقته في أيّ وقتٍ وعلى أي حالٍ وجدت سبب لأجره وثوابه"[1].

(١) بدائع التفسير: ١ / ٤١٩، وطريق الهجرتين: ٣٤٨.

الموقع السادس: نفي الخوف والحزن عن الشّهداء في سبيل اللّه:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [سورة آل عمران].

لما كانت تكاليف الجهاد ومنازلة أعداء الله ومصاولتهم في ساحات القتال شآقَّة على النَّفس البشريَّة جاء الأجر عليها عظيماً وكبيراً، فالشهداءُ أحياءٌ حياة دائمة برزخيَّة في جوار ربِّهم، يجري عليهم رزقهم في الجنَّة وينعَّمون فيها، لا كما يعتقد النَّاس أنهم فارقوا الدَّنيا وماتوا، ومن هنا جاء توجيه الخطاب من الله لرسوله في سياقٍ من التشريف والتَّكريم لتصحيح مفهوم موت الشهيد وانتهاء حياته[1]؛ تشريفاً من الله لنبيِّه الأكرم؛ لأنَّه الأجدر بالخطاب الإلهيِّ، وليُعلِّم أمته ذلك ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ

(١) من اللافت للنظر في سورة آل عمران اضطلاعها بتصحيح كثيرٍ من المفاهيم عبر التعبير بصيغة النهي عن الحسبان تارة بالخطاب المباشر لرسول الله ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾، وتارةً بخطاب الغيبة لغيره ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ﴾ انظر الآيات (١٦٩ و١٧٨ و١٨٠و١٨٨)، والآية موضع البحث نزلت حين أصيب المسلمون بما أدمى نفوسهم وأجرى مدامع عيونهم على إخوانهم الذين قتلوا يوم أحد، فجاءت الآية مخبرة بما نال قتلاهم من الثَّواب والكرامة، وبكل ما فيها من خصائص في النظم لتواسي قلق نفوسهم وتدفع خوف قلوبهم تجاه إخوانهم المقتولين، وتعزِّيهم عن قتلاهم . انظر في سبب نزول الآية سنن أبي داود كتاب الجهاد حديث رقم (٢٥١٢)، والجامع لأحكام القرآن: ٤ / ٢٦٨ للقرطبي.

﴿١٥٤﴾ ﴾ [سورة البقرة]، خصوصاً وأنَّ المنافقين يُثبِّطون عن الجهاد بدعوى أنَّه السبب في فقدان الأرواح والأحباب، فساق الله مقولتهم في الآية قبلها ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ﴾، وردَّ الله عليهم مقولتهم ببيان النَّعيم المقيم للشهداء ؛ إذ ليس الموت نهاية حتميَّة يخشاها المجاهد في سبيل الله، فهم الموتى حقيقة من الخوف ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ [سورة الأحزاب جزء آية: ١٩].

وتبرز بلاغة نظم الآية بما تحمله من خصائص بلاغية، منها:

- تصدير نظم الآية بتسليط حرف النَّهي على فعل الحسبان المضارع ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾ والحسبان قريبٌ من الظَّنِّ والشَّكِّ، إلا أنَّ " الحسبان أن يُحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله، فيَحسِبه ويعقد عليه الإصبع، ويكون بعيداً أن يعتريه فيه شكّ، ويقارب ذلك الظّنّ، لكن الظنَّ أن يُخطِر النقيضين بباله فيغلّب أحدهما على الآخر"[(١)]، فالحِسبان أقلُّ من الظَّنّ، وتستعمل (حسِب) غالباً في الظَّنِّ المخطئ[(٢)]، ولذلك نُهي عن تجدُّده وطروئه على الأذهان مطلقاً، فإذا نُهي عن مجرّد الحسبان يطوف بالخيال ويجري على القلب، فما فوقه بالنَّهي من باب أولى، " فهو نهيٌ عن أن يظنَّ

(١) المفردات في غريب القرآن: ١٥٤، وانظر عمدة الحفاظ: ١ / ٤٠٤ حيث يرجِّح السمين الحلبي أن الحسبان يرادف الظّن غالباً، ولسان العرب: ٢ / ٧٩.

(٢) انظر عروس الأفراح (ضمن شروح التلخيص): ٣ / ٣٩٠.

أنَّهم أموات، وبالأحرى يكون نهياً عن الجزم بأنَّهم أموات"[1]، وتأكيد الفعل المضارع بنون التّوكيد مشعرٌ بأقصى درجات النَّهي عن تجدُّد حسبان موت الشَّهيد وانتهاء حياته، بل يجب طرد هذا الحسبان من الأذهان ونفيه منها بقوَّة.

- **وقد خرج النَّهي هنا لبيان العاقبة " أي عاقبةُ الجهادِ الحياةُ لا الموت"[2].**
- **وقرئ بالياء ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ﴾ إما لضميره صلى الله عليه وسلَّم، أو يعود إلى الشُّهداء، والمفعول الأول محذوف؛ " لأنه في الأصل مبتدأ جائز الحذف عند القرينة، والتقدير: ولا يحسبنَّهم الذين قتلوا أمواتاً، أي لا يحسبنَّ الذين قتلوا أنفسهم أمواتاً، على أنَّ المراد من توجيه النَّهي إليهم تنبيه السَّامعين على أنَّهم أحقَّاء بأن يُسلوا بذلك ويُبشَّروا بالحياة الأبديَّة والكرامة السّنية والنَّعيم المقيم، لكن لا في جميع الأوقات، بل عند ابتداء القتل؛ إذ بعد تبيّن حالهم لهم لا يبقى لاعتبار تسليتهم وتبشيرهم فائدة، ولا لتنبيه السَّامعين وتذكيرهم وجه"[3].**
- **ولما كانت العناية منصبَّة على الفعل والحدث بذاته دون تعلُّقٍ بفاعلٍ معيَّن جاء بناء الفعل لما لم يُسمَّ فاعله ﴿ قُتِلُوا۟ ﴾ بالتَّخفيف، ولكونه معلوماً وهو**

---

(١) التحرير والتنوير: ٤ / ١٦٥.

(٢) انظر الإتقان في علوم القرآن: ٢ / ٨٢، والأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم: ٦٩.

(٣) تفسير أبي السعود: ١ / ٥٩٨.

المشركون يوم أحد، " وقُرِئ قُتِّلوا بالتَّشديد لكثرة المقتولين"[١] يوم أحد.

- والتَّعبير القرآني بفعل القتل ﴿قُتِلُوا﴾ دون فعل الموت "ماتوا "؛ لتحقيق معنى الاستشهاد، وللتَّنصيص على أنَّ حدث الموت وقع بالمجاهدين قتلاً في أرض المعركة وهذا هو المراد في سياق التَّنويه بالشَّهادة وأصحابها ممَّن سفكت دماؤهم في ساحة الوغى إعلاءً لكلمة الله، وهو ما لا يمكن أن تنهض به لفظة الموت.

- وتقييد هذا القتل بكونه ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مخرجٌ ما كان لغير الله؛ إذ ليس الشَّهيد حقيقة إلا من قُتل لإعلاء كلمة الله فحسب، فالعبارة كناية عن الجهاد لإعلاء دين الله، وسبيل الله المراد به دينه، فقد عبَّر عن دين الله بالسبيل من باب الاستعارة التَّصريحيَّة، بجامع الوصول إلى المراد في أمانٍ في كليهما، وحذف المشبه وأقيم المشبَّه به مقامه على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة.

- ثم شرع في أولى مراحل تكريم الشهداء؛ ببيان أنهم ليسوا ﴿أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ فجمع بين الضِّدين على سبيل الطباق، إذ من المركوز في الطباع المقارنة بين الأضداد والموازنة بينهما، فيتحقَّق بذلك وضوح المعنى وظهوره وتأكيده وتقويته، وينفسح المجال للنَّفس لاختيار خير الأمرين ولا شكَّ أنه هنا" الحياة"، والسبيلُ إليها هو الجهادُ في سبيل الله، " والمختار فيها أنها حياةٌ

(١) تفسير البيضاوي: ١/ ١٨٩، وانظر تفسير أبي السعود: ١/ ٥٩٨، والتحرير والتنوير: ١٦٥/٤، وقراءة التشديد هي لابن عامر. انظر علل القراءات: ١٣٠/١ للأزهري، والسبعة في القراءات: ٢١٩.

غيبيَّـة لا نبحـث عـن حقيقتهـا، ولا نزيـد فيهـا علـى مـا جـاء بـه خيـر الـوحي شيئاً"[1]، فالمجاهدون وإن قتلوا ظاهريَّاً فإنَّهم أحياءٌ حياة حقيقيَّة في البرزخ يحصل بها لأرواحهم التَّلذّذ بالملذات من الرّزق والسّرور بأخبار إخوانهم دون أن يدرك أهل الدّنيا حقيقتها، يقول د. أحمد بدوي: " إذا كان أول ما يثني المرء عن الجهاد هو حبّه للحياة وبغضه للموت، فقد أكَّد القرآن مراراً أنَّ هذا الذي يُقتل في سبيل الله حيٌّ عند ربِّه يُرزق وإن كنَّا لا نشعر بحياته ولا نحسّ بها.. وإذا كان من يقتل في سبيل الله حيَّاً يرزق، ويظفر بحياةٍ سعيدةٍ ؛ فرحاً بما أنعم الله به عليه، لا يمسّه خوف ولا يدركه حزن، فلا معنى للإحجام عن الجهاد ؛ حرصاً على حياةٍ لا تنقطع بالموت في ميدان القتال، ولا تنتهي بالاستشهاد، بل يستأنف صاحبها حياة أخرى آمنة، خالصة ممَّا يشوب حياة الدّنيا من القلق والمخاوف والأحزان"[2].

- **ووراء هذا النَّهي الذي ابتُدأت به الآية – عند الإمام الطيبي – "تشبيهاً ؛ لأن باب علمت وحسبتُ من دواخل المبتدأ والخبر، فالواجب حمل المفعول**

---

(١) تفسير المنار: ٤ / ٢٣٣، اختلف العلماء حول طبيعة هذه الحياة وصفتها وهل هي حقيقيَّة أم مجازيَّة، والصَّواب أنها حياة حقيقيَّة وردت السنَّة الصحيحة بصفتها وهي قول رسول الله: " لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طيرٍ خضر ترد أنهار الجنَّة تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلَّقة في ظلِّ العرش، فلمَّا وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلّغ إخواننا عنَّا أنَّا أحياء في الجنَّة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عند الحرب، فقال الله سبحانه: أنا أبلّغهم عنكم " رواه أبو داود في كتاب الجهاد وحسَّنه الألبانيّ.

(٢) من بلاغة القرآن: ٣١٣.

الثاني على الأول، ولا يصحّ ذلك في الآية إلا بالتشبيه، كأنه قيل: لا تحسبنَّهم كالأموات بل احسبنَّهم كالأحياء، ثمَّ بيَّن ما به شبهوا بهم بقوله: ﴿يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ﴾ فيكون حديث الطير بياناً لكيفيَّة حياتهم وإيصال الرزق لهم..."[١].

- وزاد المعنى وكادةً العطفُ بـ ﴿بَلْ﴾ للإضراب الإبطالي وهو يحمل معنى الاستدراك فيقرِّر حكم ما قبلها وهو النَّهي، ويثبت الضِّدّ لما بعدها، والعطف هنا عطف جملةٍ على جملة، تُرك ذكر المبتدأ فيها " المسند إليه " للإيجاز، وتقديره: بل هم أحياء، فهي " ليست ﴿بَلْ﴾ التي تعطف مفرداً على مفردٍ ؛ لأنَّ المعنى يختلّ إذ يصير: لا تحسبنَّهم أحياء، بل الغرض الإعلام بحياتهم ترغيباً في الجهاد وحثّاً عليه...وقد خُولف الإعراب بين المتعاطفين في الظاهر للدلالة على أنَّ الموت أمر طارئ، يعقبه الهمود والاندثار وعدم تجدُّد الذِّكر، أمَّا الرفع وجعله جملة اسميَّةٍ فهو أبلغ في الدلالة على الديمومة وطروء الذِّكر وتجدُّده كلَّ يوم"[٢].
- وفي التَّعبير بظرف المكان ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ إشعارٌ بقرب منزلتهم منه، فهم ذوو زلفى عند ربِّ العرش العظيم، وفي أفضل دور الجنة وأحسنها، وذلك تشريفٌ لمقامهم وتكريمٌ لهم، فهم في أعلى درجات الشَّرف والكرامة، ولما كان الوصف بالقرب من الله أشرف من الوصف بالرِّزق وآنس للقلوب وألذُّ

(١) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب " سورة آل عمران ": ٣٤٢.

(٢) إعراب القرآن الكريم وبيانه: ١ / ٤٧٤ – ٥٧٥.

للأسماع قُدِّم الوصف بالعنديَّة على الوصف بالرِّزق [1] هذا إذا كان الظَّرف ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ متعلِّقٌ بقوله: ﴿أَحْيَاءٌ﴾، أمَّا إذا كان الظَّرف متعلِّقاً بالفعل بعده ﴿يُرْزَقُونَ﴾ فإنَّ تقديم الظَّرف ﴿عِندَ﴾ على متعلَّقه وهو الفعل بعده يفيد الاهتمام بكينونة الرِّزق [2]، ويحتمل أن يكون تقديماً لأجل القصر أي عند ربهم لا عند غيره يرزقون.

- **وإضافة الظَّرف إلى عنوان الرُّبوبيَّة واسمها ﴿رَبِّهِمْ﴾، مع إضافة لفظ الرّبوبيَّة إلى ضمير الشّهداء أفاد مزيد التَّكريم والإعلاء لشأنهم، فهم مربوبون لربِّهم الذي يُربِّيهم بنعمه [3].**

---

(١) انظر البحر المحيط: ٣ / ١١٨، وغالباً ما يأتي ذِكْر العنديَّة مقيَّداً بالرَّب في سياق التكريم لبيان القرب الشَّديد كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [سورة الأعراف]، وقوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة فصلت]، وقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الأنبياء] وقوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة التكوير]، وللعلماء آراء شتّى حول تفسير حقيقة هذه العنديَّة هل هي عندية شرف ومكانة أم عندية مكانٍ ومسافةٍ، أم عندية علم وحكم، والمقصود ما أشار له الرَّازي بقوله: "..فإذا فهمت السعادة الحاصلة للملائكة بكونهم عند الله فهمت السعادة الحاصلة للشهداء بكونهم عند الله، وهذه كلمات تفتح على العقل أبواب معارف الآخرة " تفسير الرازي: ٨ / ٩٣.

(٢) انظر التحرير والتنوير: ٤ / ١٦٦.

(٣) انظر تفسير البيضاوي: ١ / ١٨٩، وتفسير أبي السعود: ١ / ٥٩٨.

- ثم استتبع إثبات ديمومة الحياة للشّهداء في النعيم بوصفهم بجريان الرزق المستمر عليهم فهم ﴿ يُرْزَقُونَ ﴾ في الجنَّة من وقت قتلهم، وإثبات الرِّزق تحقيقٌ وتأكيدٌ للحياة الحقيقيَّة الدائمة لهم دون انقطاعٍ ؛ إذ الرِّزق من خصائص الأحياء [١].

وفي التعبير بصيغة المضارع إشعارٌ بتجدُّد الرِّزق وحدوثه واستمراره في مستقبل الأيام دون توقُّفٍ كلما اشتهت نفوسهم شيئاً يرزقونه، وإطلاق فعل الرِّزق دون تقييد يُشعر بتنوُّع النَّعيم وشموله وكثرة ألوانه، مع ما فيه من المحافظة على جمال إيقاع الفاصلة في رؤوس الآيات.

- ويتدرَّج النَّظم القرآنيّ في بيان ما أعدَّه الله للشُّهداء إخباراً بفرحهم وتمام سعادتهم بالأحوال التي هم فيها من التَّمتّع بالنَّعيم المقيم العاجل، والزُّلفى عند ربِّهم، والفوز بالحياة الأبديَّة، وذلك كمال الرِّضا، والتعبير بالاسم ﴿ فَرِحِينَ ﴾ مشعرٌ بديمومة هذا السّرور واستمرار هذا الفرح الذي يغمر قلوبهم دون انقطاعٍ خصوصاً أن بنائه جاء على وزن الصفة المشبهة " فَعِل " دلالةً على عظم الفرحة السَّاكنة نفوسهم وديمومتها في حياتهم.

- ولا يخفى ما تنطوي عليه "ما" الموصوليَّة ﴿ بِمَآ ﴾ بما يفيد العموم والكثرة لألوان النَّعيم المقيم الذي هم فيه فلا يحيط به وصف، وصولاً إلى إلهاب الرغبة في الجهاد من خلال استبشارهم بإخوانهم الذين هم في إثرهم ومن خلفهم.

- ولما كان تمام سرور الشَّهيد وهو في النَّعيم اجتماعه بإخوانهم جمع الله لهم ذلك فقال: ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ فعبَّر بالفعل المضارع

(١) انظر الكشاف: ١ / ٣٣٥، والمحرر الوجيز: ٣٨١، وتفسير أبي السعود: ١ / ٥٩٩.

﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ ﴾ للإشعار بأنَّ الاستبشار وهو طلب السُّرور الحاصل بالبشارة متجدِّدٌ من الله على بشراتهم حالاً بعد حال، فهم في فرحٍ دائمٍ، وبشرى متجدِّدة تعلو وجوههم بمن سيلحقهم من إخوانهم المجاهدين الذين لم يقتلوا بعدُ في سبيل الله بأنَّه لا خوف عليهم فيما يستقبلونه من أمور الآخرة ؛ لأنهم في أمنٍ تامٍ من أهوالها، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من حظوظ الدنيا، " وفي ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم بعثٌ للباقين بعدهم على ازدياد الطاعة، والجدِّ في الجهاد والرَّغبة في نيل منازل الشهداء وإصابة فضلهم، وإحمادٌ لحال من يرى نفسه في خيرٍ فيتمنَّى مثله لإخوانه في الله، وبشرى للمؤمنين بالفوز في المآب"[1].

- وفي تقييد اللاحقين بهم من إخوانهم بـ ﴿ مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أي من بعدهم " دلالة على أنهم وراءهم يقتفون أثرهم ويحذون حذوهم قدما بقدم، فهو قيدٌ فيه الخبر والحثّ والترغيب والمدح والبشارة، وهو من البلاغة بالمكان الذي لا يُطاول " [2]، كما أنَّه موحٍ بكنايةٍ عظيمةٍ عن بقاء الجهاد والمجاهدين الذين في بقائهم نكاية لأعداء الله.
- ولما كان القتال في سبيل الله ظاهره أنَّه مجلبة للخوف على الرّوح والأحباب، ومدعاة للحزن على فقدانها ناسب أن يكون جزاء الشهداء والمجاهدين اللاحقين بهم الأمن التَّام بنفي الخوف عليهم من مكروه يُتوقَّع من أهوال يوم القيامة " نفي جنسٍ ولا احتمال لنفي الوحدة" [3]، والتنكير ﴿ خَوْفٌ ﴾ للتقليل لنفي أدنى خوفٍ عليهم، ونفي الأدنى يستلزم نفي الأعلى،

(١) الكشاف: ١ / ٤٦٧.

(٢) تفسير المنار: ٤ / ٢٣٥.

(٣) التحرير والتنوير: ٤ / ١٦٦.

كما نُفي الحزن عنهم من مكروهٍ وقع أو من فوات محبوبٍ من نعيم الدنيا والآخرة على جهة التأكيد بأسلوب القصر بطريق تقديم المضمر الذي ولي النَّفي على خبره الفعليِّ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وأثبته لغيرهم من المنافقين والمتقاعسين عن القتال، فالمقصور " الحزن المنفيّ "، والمقصور عليه الضمير ﴿هُمْ﴾، قصر صفةٍ على موصوفٍ قصر قلب، قلب على المنافقين اعتقادهم فيمن قتلوا في سبيل الله بأنهم لا حزن يلحقهم، والحزنُ الحقيقيُّ ثابتٌ لمن أخذ برأيهم في التَّوقِّي من الموت بعدم القتال، فإنَّهم إذا عاينوا يوم القيامة الأجر الذي أعدَّه الله للشّهداء يتمنَّون الرّجوع للدّنيا لينالوا أجر الشَّهادة فلا يُطاعون لذلك فيكون حسرةً وحزناً عليهم.

- وجملة ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ " بدل من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل اشتمال مبيّن لكون استبشارهم بحال إخوانهم لا بذواتهم، و ﴿أَن﴾ هي المخفَّفة من ﴿أَنَّ﴾، واسمها ضمير الشأن المحذوف، وخبرها الجملة المنفيَّة، أي ويستبشرون بما تبين لهم من حسن حال إخوانهم الذين تركوهم، وهو أنهم عند قتلهم يفوزون بحياةٍ أبديَّةٍ، لا يكدرها خوف ولا وقوع محذور، ولا حزن على فوات مطلوب، أو لا خوف عليهم في الدنيا من القتل فإنَّه عين الحياة التي يجب أن يُرغّب فيها فضلاً عن أن تُخاف وتُحذر، أي لا يعتريهم ما يوجب ذلك، لا أنه يعتريهم ذلك لكنهم لا يخافون ولا يحزنون، والمراد بيان دوام انتفاء الخوف والحزن، لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر في الجملة الثانية مضارعاً، فإنَّ النفي وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام"[(١)].

(١) تفسير أبي السعود: ١ / ٥٩٩.

- **ولما كان المقام مقام إخبارٍ بالمستقبل الذي يُقبل عليه الشهداء ناسب أن يكون نفي الخوف– وهو متعلِّقٌ بالمستقبل أيضاً– مقدَّماً على نفي الحزن.**
- **ثم كرَّر فعل الاستبشار بلفظه ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ تأكيداً لاستبشار الشهداء المتقدِّم وإقراراً له في النّفوس[1] ؛ ولذا ترك حرف العطف" لتنزيل الاستبشار الثاني منزلة الاستبشار الأول حتى كأنه هو"[2]، وأتى المضارع ليدل على أنه استبشارٌ بما يُجدَّد لهم كلَّ وقتٍ من نعمة الله وفضله وكرامته.**
- **وأشعر الإبهام في تنكير ﴿بِنِعْمَةٍ ﴾ ﴿وَفَضْلٍ ﴾ فلم يُعيِّنه قصداً للتفخيم وللتَّعظيم فهي نعمةٌ وفضلٌ لا يُقادر قدرها وثوابها، وللدلالة على كونه غيباً لا يكتنه كنهه في هذه الدار[3].**

يقول أبو حيان: " ففي التنكير دلالة على بعضٍ غير معيَّن، وإشارة إلى إبهام المراد تعظيماً لأمره، وتنبيهاً على صعوبة إدراكه، كما جاء" فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"[4]، وزاد من التفخيم والتَّعظيم تقييد النَّعمة والفضل بأنَّها ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ فهما منه سبحانه لا من غيره وليست هي بعملهم.

- **والعطف بين النّعمة والفضل ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ ﴾ يشعر بالتغاير والتَّباين في المعنى، فالنعمة الجزاء الذي يلقاه العامل جزاء عمله، والفضل المراد به**

---

(١) انظر تفسير البيضاوي: ١ / ١٩٠، والمحرر الوجيز: ٣٨٢، والتحرير والتنوير: ٤ / ١٦٧.

(٢) تفسير المنار: ٤ / ٢٣٧.

(٣) انظر تفسير المنار: ٤ / ٢٣٧.

(٤) البحر المحيط:١٢١/٣، وانظر أنوار التنزيل:٤٨/٢، وقطف الأزهار: ٦٦٣/١.

الزيادة والمضاعفة على الأجر التي يتفضَّل بها الله [١].

- ثم جاءت خاتمة الآيات ببيان أنَّ من جملة نعم الله على الشُّهداء المستبشر بها والمستوجبة للشُّكر: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فعدم ضياع أجرهم وثوابهم كناية عن قبول أعمالهم وحفظ ثوابها، وسمَّى الشّهداء باسم الإيمان ﴿ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ ؛ إشارة إلى سموِّ مكانتهم ورفعة منزلتهم، وتصدير الجملة الاسمية بحرف التوكيد المثقَّل المقرون بلفظ الجلالة والذي قُدِّم فيه المسند إليه على خبره الفعليّ المنفيّ كلها مؤكِّداتٌ اقتضاها مقام التبشير والتعَّزية، فقد كان الصحابة حين كُسروا يوم أحد وقُتِل نفرٌ منهم أحوج ما يكونون إلى الطمأنة بالوسائل التعبيرية المؤكدة التي تملأ نفوسهم ثقة، وتدفع عنهم الإحساس بالهزيمة والضعف، فجاءت الآية بخصائصها التعبيريَّة ومضامينها المعنويَّة المتمثِّلة بنقل صورة ما يجري للشّهداء بعد استشهادهم أحسن تعزيةٍ لهم وألطفها وادعاها إلى الرِّضا بما قضاه الله لهم وقدَّره.
- وظاهرٌ في الآية اشتمالها على فنِّ مراعاة النَّظير وهو الجمع بين الأمور المتناسبة سواء أكانت المناسبة لفظاً أم معنى " فقد ناسب سبحانه بين ﴿ فَرِحِينَ ﴾ و﴿ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾، وبين عدم الخوف وعدم الحزن، وبين النِّعمة والفضل"[٢].

(١) انظر البحر المحيط:١٢١/٣، وقطف الأزهار: ٦٦٣/١.

(٢) إعراب القرآن الكريم وبيانه: ١ / ٥٧٥.

الموقع السابع: نفي الخوف والحزن عن أصحاب الأعراف:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

تأتي هذه الآية لترسم صورة من صور التَّكريم والفضل للمؤمنين في الآخرة، فهي من سياقٍ يُصوِّر مشهداً زاخراً بالحوار والحركة يوم القيامة، حيث مشهد أهل الجنَّة وقد اطمأن بهم المقام فيها، ثم مشهد أصحاب النار حيث الخزي والهوان في نار جهنم، يليهما مشهد الأعراف [1] ممَّن قصرت بهم أعمالهم فلم يدخلوا الجنَّة ﴿ وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾، وتقدَّمت بهم عن أن يكونوا من أهل النَّار الذين إذا صُرفت أبصارهم إليهم ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، وفي خضمّ حوار أصحاب الأعراف لأهل الجنَّة والنَّار يستمع الجميع لصوتٍ يعلن رحمة الله بأهل الأعراف وشمولهم بواسع فضله، فيأذن لهم الله بدخول الجنَّة حيث السَّعادة الغامرة التي لا يكدِّرها همٌّ أو غمّ، وحيث الأمن التام الذي لا يشوبه خوف على ما هم مقدمون عليه، ولا حزن على ما خلَّفوه.

- استفتاح الآية جاء بالاستفهام بالهمزة في قوله تعالى حكاية على لسان أهل الأعراف لأهل الكبرياء في الدُّنيا: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ ﴾، وهمزة الاستفهام هنا خرجت عمَّا وُضعت له إلى غرضٍ بلاغيٍّ يدرك من السِّياق فهي للاستفهام التوبيخيّ التقريريّ، لتقريع لأهل الكبرياء في الدنيا

(١) الأعراف جمعٌ واحده العُرْف من أعراف الحجاب وهو السور المضروب بين الجنة والنار وهي أعاليه سُمِّي بذلك لارتفاعه وحجزه ما بين الاثنتين. انظر الكشاف: ٢ / ١٠٢.

الـذين تـألَّوا علـى الله وأقسـموا ألا يُـدخل الفقـراء جنَّتـه، فكـان العكـس هـو الصَّحيح بتكريم الله لهم.

- ثم انتقل السِّياق من كلام أصحاب الأعراف إلى كلام الله وخطابه لهم تكريماً وتقريباً وتشريفاً لهم [(١)]، وعندها يتحتَّم الإضمار ويقدَّر بـ: " فقال الله لهم": ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ ﴾، ففعل الأمر مشعرٌ بالسُّرعة والفورية في دخولهم الجنة الأبديَّة بلا مهلة ومن غير تراخ، كيف وقد أكرمهم بأكرم ما يُكرم به عباده في أصعب الأوقات الذي فيه من الأهوال ما يجعل الولدان شيبا.
- وزادهم تكريماً بالأمن والطمأنينة من خلال قوله: ﴿ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾ فلا خوف عليكم من المستقبل ولا من العذاب الذي تُشاهدونه، ولا حزن على ما فاتكم في الدنيا ؛ إذ الخوف والحزن انقضى عهدهما في الدُّنيا، واليوم أنتم في الأمن والطمأنينة والسَّعادة في جنَّات النَّعيم، وفصلت هذه الجملة عن ما قبلها لكمال الانقطاع، فالأولى ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ إنشائيَّة، والثانية ﴿ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ ﴾ خبريَّة، وعطف جملة ﴿ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾ على ما قبلها لاتفاقهما في الخبرية فهي أخبارٌ تحمل بشائر من الله جلَّ جلاله.

(١) انظر مختصر تفسير البغوي: ٣٠٥.

الموقع الثامن: نفي الخوف والحزن عن أولياء الله الصالحين:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [سورة فصلت]

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة الأحقاف].

- **جاءت آيتا سورة فصلت والأحقاف جملة خبريَّة مفصولة عن الآيات قبلها للاستئناف البيانيّ ؛ فإنَّ سياق الآيات قبلها في استعراض حال المعاندين المستكبرين ممّن أعرضوا عن القرآن الكريم وصرفوا غيرهم عن اتِّباعه فتوعَّدهم الله بالوعيد الشديد والعذاب المهين، والنفسُ يثور فيها تساؤل وطلب لمعرفة حال من جمع بين التَّوحيد وهو العلم والاستقامة وهي العمل، ومآل من آمن وصدَّق واستقام على طريق العبوديَّة " اعتقاداً وعبادةً " دون أن تزلَّ قدمه عنه، فتأتي الآية إجابة لها مبدوءة بحرف التأكيد ﴿إِنَّ﴾ مراعاة لمقام التساؤل والطلب المثار من الآيات قبلها، ومراعاة لحال إنكار المنكرين من المشركين فسماعهم لوعد الله لأوليائه مؤكَّداً يزيدهم حسرةً وندامةً، أو لعل الفصل جاء لكمال الانقطاع لانعدام الجامع بينهما فما قبلها في إنذار أصحاب السعير ووعيدهم، وهذه في بشارة أصحاب الجنة ووعدهم ولا جامع يربط بينهما.**

يقول الرَّازي: " واعلم أنَّه تعالى لما أطنب في الوعيد أردفه بهذا الوعد الشريف، وهذا ترتيب لطيف مدار كلِّ القرآن عليه " [(١)]، ثم إنَّ بناء الآيتين على التوكيد بـ ﴿ إِنَّ ﴾ وهو رباطٌ معنويٌّ أغنى عن العطف الظاهريِّ والرباط الحسِّي بالواو، وجعل الجملتين متَّصلتين بما قبلهما اتصالاً من ذات نفسيهما.

- افتتاح الآيتين بحرف التوكيد المثقَّل ﴿ إِنَّ ﴾ مع اسميَّة الجملة زاد من قوَّة الإسناد في الجملة، وجعله في منزلة تكرار المسند إليه والمسند مرَّتين، وهذا الأسلوب من شأنه تثبيت هذا الخبر المتضمِّن للبشرى والوعد الحسن في نفوس المؤمنين للترغيب في سلوك طريقهم، خصوصاً أن كلتا السُّورتين مكِّيتين وقد نزلتا في مرحلةٍ متقدمةٍ من الدعوة حيث يحتاج كلَّ من دخل في دين الله إلى التثبيت والتسلية والترغيب بالأجر العظيم فيزداد على دينه تمسُّكاً، كما أن نزول الملائكة على المؤمنين خبر مستغرب، ولكي يقع هذا الخبر موقع التسليم والقبول أُكِّد، والتأكيد يحمل أيضاً تعريضاً بمن خالفهم وعاداهم من المشركين المعاندين وتقريعاً لهم بأنَّ الويل والثّبور مصيرهم، فالتأكيد هنا كما يقول البقاعي: أيضا من أجل إنكار المشركين المعاندين[(٢)]، وفيه كما يقول ابن عاشور: زيادة قمع للمشركين[(٣)].

وتعريف المسند إليه بالاسم الموصول في الآيتين ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ والنّصّ على مقولهم دون أن يقال: " إنَّ المؤمنين " ؛ قُصد منه إبراز وإعلان افتخارهم بصفة الإيمان التي هي أجلّ صفاتهم، وامتداح للمؤمنين

(١) التفسير الكبير: ٢٧ / ١٢١.

(٢) انظر نظم الدرر: ١٧ / ١٨٢.

(٣) انظر التحرير والتنوير: ٩ / ٢٨٢.

المتّصفين بهذه الصفة العظيمة الماثلة في منطقهم ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ وهو أفضل ما قاله رسل الله وأنبياؤه، وبحسن توجُّههم وفعالهم ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾، فهي غير مقتصرة على أهل زمانٍ بعينه، بل تنسحب على من هذه صفته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والجملة التي تعقب الاسم الموصول مرتبطة به أشدّ ما يكون الارتباط، وهي بهذا الطول لا بد أن تتشوَّف النفس لمعرفة خبرها، كما أن جملة الصلة تومئ إلى وجه بناء الخبر، فمن قرأ جملة الصلة ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ وهي إيمانٌ بالله واستقامةٌ على شرعه أدرك نوع الخبر وأيقن بأنَّه جزاء حسن وبشارة عظمى ؛ لأنَّ الجزاء من جنس العمل، " ومثله كثير جداً في كتاب الله حيث نجد المبتدأ يحمل من المعاني ما يهيئ النفس إلى الخبر حتى لتكاد تعرفه قبل النُّطق به، وهذا لعمرك فنٌّ من الكلام جزل دقيق لا يهتدي إليه إلا فطن محدث"[1]، " ولما في الصلة من الإيمان إلى أنها سبب ثبوت المسند للمسند إليه فيفيد أن تنزَّل الملائكة عليهم بتلك الكرامة مسبَّب على قولهم: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ واستقامتهم، فإنّ الاعتقاد الحقَّ والإقبال على العمل الصَّالح هما سبب الفوز"[2].

- والتعريف بالإضافة في قوله: ﴿رَبُّنَا﴾ يُكسب التشريف والتَّكريم للمضاف إليه من المضاف، وصيغة الجمع ﴿رَبُّنَا﴾ تقرِّر أنَّه ربّ الجميع فلا يليق بأحدٍ من عباده أن يُنكر ربوبيته وألوهيّته، مع ما يحمله لفظ الربوبية ﴿رَبِّ﴾

(١) خصائص التراكيب: ١٩٧.

(٢) انظر التحرير والتنوير: ٩ / ٢٨٢.

من الصِّلة الشديدة والإحساس بالقرب من الله تعالى فهو خالقهم ومربِّيهم بنعمه ورازقهم.

- وتعريف الطرفين (المسند والمسند إليه) في قوله: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ مفيد للقصر بمعنى " لا ربَّ لنا إلا الله جلَّ جلاله، ولا إله إلا الله "، وفي ذلك تأكيد لا يخفى كون الجملة القصريَّة في قوَّة جملتين، ويظهر في قولهم هذا الافتخار بربوبيّته والاعتزاز بوحدانيته، والتَّبرّي من الخضوع لغيره والصَّدع بها دون خشيةٍ أو خوفٍ من أحد، "وهذه الشهادة مقترنة بدليلها ؛ هذا الدَّليل هو وقوع ﴿رَبُّنَا﴾ مبتدأ، ولفظ الجلالة﴿ٱللَّهُ﴾ خبر، ووجه كون هذا دليلاً أنَّ لفظ الرَّبِّ يدلّ على العطاء والنِّعم الغامرة التي لا تحصى، وأوَّلها الوجود من كتم العدم، وراجع ما يدلّ عليه الوجود من جعل السَّمع والأبصار والأفئدة وما يلزم ذلك من جعل الأرض مهادا، والجبال أوتادا، وإنزال الرِّزق، وتصريف الرياح، وكل ما يلزم لحياة الإنسان، ولا يُعطى هذا العطاء إلا الموصوف بكلِّ كمالٍ والمنزَّه من كلِّ نقصٍ، وإذا قلت صاحب النّعم هو الله فأنت تقيم الدَّليل على الألوهيَّة، وهذا هو المراد بأنَّهم شهدوا شهادة الحقِّ مقترنة بدليلها"[1].

- وتبرز بلاغة القرآن الكريم في الآيتين في التعبير بحرف العطف والمهلة ﴿ثُمَّ﴾ والذي هو حرفٌ مكوَّنٌ من ثلاثة أحرفٍ، أثقل تضعيف آخره حركته على اللسان، فأشعر بطول لزوم المؤمنين الاستقامة والثبات على الطاعة في كل ما أمر الله به، والانتهاء عن كلِّ ما نهى عنه بعد الإيمان بالله وتوحيده على

(١) آل حم الجاثية والأحقاف: ٣٩١.

مرَّ الزمان فهي للتراخي الزَّمني بين المعطوف والمعطوف عليه[1]؛ مبالغة في امتداحهم بطول مداومتهم على الاستقامة دون مللٍ أو فتور في كلّ الأزمان والأحوال، فلا يزيدهم مرور الزَّمن ومشقة العبادة إلا ثباتاً على الاستقامة، ولا يتسرَّب لنفوسهم ملل أو شكٌّ في وعد الله لهم يقول د. أبو موسى عمَّا رسمه حرف البُعد من إيحاءٍ ببعدٍ زمنيٍّ وبُعد معنويّ: " جاءت كلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ لتبين طبيعة النَّفس الإنسانيَّة عند مزاولة أمر الله ونهيه وأن ذلك يكون منها بصبرٍ وأناة، وأنها لا تستقيم على وجهٍ مما آمنت به إلا بعد مراودة ورياضة وتخليص النَّفس من أوضار الإثم، وخصوصاً في جماعةٍ انتقلت من وثنيَّةٍ مغرقةٍ في ضلالات الجاهليَّة إلى محجَّة الحقِّ والشَّرع والحنيفيَّة البيضاء"[2].

- **وإذا كان البُعْد الزَّمانيّ ملحوظاً في العطف بأداة البُعْد﴿ ثُمَّ ﴾ فإنَّ البُعد الرّتبيّ بارزٌ أيضاً على سبيل الاستعارة التَّبعيَّة، باستعارة التَّراخي الزَّمني للتَّراخي في الرتبة والتَّفاوت في المراتب بين المعطوف والمعطوف عليه من باب التّرقِّي للأفضل فهي تُوحي بتعظيم حال المعطوف وفضله وهي صفة الاستقامة وتفخيم موقعها ومكانتها وتحريك النفوس لاعتبارها، فالاستقامة تعمّ كلمة التوحيد التي في قولهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾، ثمّ المداومة عليها واستمرار العمل بما يستدعيها، فالثَّبات على الفعل خيرٌ من الفعل نفسه، خصوصاً إذا كان تفسير الاستقامة " أنهم لم يرجعوا إلى الشِّرك وعبادة الأوثان"[3]، فيكون المعنى: إنَّ**

---

(١) انظر تفسير أبي السعود: ٨ / ١٣.

(٢) آل حم " غافر وفصلت ": ٤١٣.

(٣) هذا التفسير مرويٌّ عن أبي بكرٍ الصِّدّيق رضي الله عنه. انظر تفسير القرآن العظيم: ٤/١٠٠ لابن كثير، كما رُوي عن الخلفاء الراشدين تفسير الاستقامة بأنها الثبات على الإيمان وإخلاص العمل وأداء الفرائض وكلها من جزئيات الاستقامة.

الثبات على توحيد الله وطمأنينة القلب له والاستمرار على عدم الإشراك معه غيره أصعب وأعلى مرتبة من النُّطق بكلمة التَّوحيد باللسان فقط، وهذا المعنى أشار له الزمخشري مراراً بقوله:" ﴿ ثُمَّ ﴾ لتراخي الاستقامة عن الإقرار في المرتبة وفضلها عليه ؛ لأنَّ الاستقامة لها الشأن كله"[(١)]، وفي موضعٍ آخر قال: "كما جعل الاستقامة على الإيمان خيراً من الدخول فيه[(٢)] بقوله: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾"[(٣)].

وفي موضعٍ آخر يقول: " وكلمة التَّراخي دلَّت على تباين المنزلتين دلالتها على تباين الوقتين في (جاءني زيد ثم عمرو) أعني أنَّ منزلة الاستقامة على الخير مباينة لمنزلة الخير نفسه ؛ لأنَّها أعلى منها وأفضل"[(٤)]، فالإقرار مبدأ الاستقامة ثم يليها العمل بها والثبات عليها وهو أشقّ لما فيه من المجاهدة حتى قال البيضاوي: "الاستقامة عسر قلَّما تتبع الإقرار"[(٥)].

---

(١) الكشاف: ٢٠٤/٤، وانظر تفسير البيضاوي: ٣٥٣/٢، وتفسير أبي السعود: ١٣/٨، والتحرير والتنوير: ٢٨٣/٩.

(٢) الدخول في الإيمان وكلمة التوحيد رتبة عالية ليس فوقها رتبة، وإنما التفاوت الرتبي في أحوال عباد الله القائلين بها، فأولياء الله يقولونها ويدومون على مرِّ الأزمان على الاستقامة ويثبتون على مقتضياتها، ومن الناس من يقولها ثم يروغ عنها—قلَّةً أو كثرةً—روغان الثعالب لفتورٍ يعتريه.

(٣) الكشاف: ٣٣٩/١.

(٤) الكشاف: ٣ / ٨١، والتراخي الرُّتبي يأتي إيذاناً بترتب الأخبار بما لم تجر به عادة، لا لترتيب الزمان وتراخيه، وذلك لإثبات تباين الصفات في الحال ؛ وما له من أثر في تحريك النفوس. انظر مغني اللبيب: ١ / ١٣٦، والبرهان في علوم القرآن: ٤ / ٢٦٨.

(٥) تفسير البيضاوي: ٢ / ٣٥٣.

- **ولابن المنير رأيٌ في استعارة الحرف في هذه الآية ممَّا يدلّ المعطوف فيه على الدَّوام والثَّبات حيث يرى أنَّه استعير تراخي زمن وقوع الفعل وحدوثه الذي هو حقيقة ﴿ ثُمَّ ﴾ لتراخي زمن بقائه ودوام وجوده، فيدلّ بذلك على دوام المعطوف واستمراره، وعليه فإنَّ معنى ﴿ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ " أي داموا على الاستقامة دواماً متراخياً ممتد الأمل، وتلك الاستقامة هي المعتبرة، لا ما هو منقطع إلى ضدّه من الحيد إلى الهوى والشَّهوات"[1].**
- **ويحتمل أن يكون إيثار حرف التراخي ﴿ ثُمَّ ﴾ على ما ظاهره أنه موضع الواو؛ للدلالة على تأخّر رتبة العمل وتوقُّف اعتباره والاعتداد به على التوحيد[2].**
- **ويطلّ من الآيتين إيجازٌ بديع بليغ في قوله: ﴿ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ فالاستقامة كلمة شاملة لكلِّ معاني التقوى بجميع الأوامر والنَّواهي، وأقلُّ انحراف عن الطريق المستقيم يخرج الإنسان من الاستقامة، وللصحابة والتابعين والعلماء في تفسير معنى" الاستقامة" معانٍ عدِّة كلها تتقبَّلها ؛ لأنها من باب التَّمثيل ليست من باب الحصر والتعاريف الجامعة المانعة لمعنى " الاستقامة "، بل وتتقبل ما هو أوسع وأشمل منها، فهي من أجلِّ الشَّواهد في باب الإيجاز وجوامع الكلم، قال عنها الثعالبي في باب " بعض ما نطق به القرآن من الكلام الموجز المعجز": "من أراد أن يعرف جوامع الكلم ويتنبَّه على فضل الإعجاز والاختصار ويحيط ببلاغة الإيماء، ويفطن لكفاية الإيجاز، فليتدبّر القرآن وليتأمَّل علوه على سائر الكلام، فمن ذلك قوله عزَّ ذكره: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ﴾**

---

(١) حاشية ابن المنير على هامش الكشاف: ١ / ٣٣٩.

(٢) انظر تفسير البيضاوي: ٣٩٤/٢، وتفسير أبي السعود: ٨٢/٨.

﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا ﴾، استقاموا كلمة واحدة تفصح عن الطّاعات كلها في الائتمار والانزجار، وذلك لو أنَّ إنساناً أطاع الله سبحانه مائة سنة، ثم سرق حبَّة واحدة لخرج بسرقتها عن حدِّ الاستقامة" [١]، فهاتان الكلمتان: "﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا ﴾ تجمعان الإسلام الصَّحيح كلَّه، فهي مِمَّا أُمر به رسول الله في أوَّل سورة فصلت: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ﴾ [سورة فصلت]، وقد اقتبس صلى الله عليه وسلَّم هذا المعنى الجامع الموجز فقال لأبي سفيان الثقفي حين سأله فقال: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، فقال عليه الصَّلاة والسَّلام: " قل آمنت بالله ثم استقم"[٢].

- وفي التَّعبير عن حسن العمل والثبات عليه بـ " الاستقامة " استعارة أصليَّة، فأصل الاستقامة في كلّ شيء مبصرٍ معتدلٍ دون اعوجاج ومنه قولهم: طويل القامة وقائم السيف ورمح قويمة، ثم استعيرت للثبات على الحقِّ ودوام ملازمة العمل الصالح دون انقطاع، فهي من استعارة المحسوس للمعقول لإيضاح شأن المعقول وحسنه في صورةٍ حسيّة تراها العيون، ولتقريب صورته في الأذهان فتأنس النّفوس إليه وتحرص عليه، "والسين والتاء في ﴿ٱسْتَقَٰمُوا ﴾ للمبالغة في التقويم.. والوفاء بما كُلِّفوا به وأوَّل ما يشمل من ذلك أن يثبتوا على أصل التَّوحيد أي لا يغيّروا ولا يرجعوا عنه"[٣].

(١) الإعجاز والإيجاز: ١٠.

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، رقم الحديث (١٥٩).

(٣) انظر التحرير والتنوير: ٩ / ٢٨٢.

- والنّص على الإيمان بالله والاستقامة على شرعه في صلة الموصول بصيغة الفعل الماضي﴿ قَالُواْ ﴾ ﴿ٱسۡتَقَٰمُواْ ﴾ مشعر بتلبّسهم بالإيمان وعقد قلوبهم عليه، فهو قد وقع منهم وثبتوا على الاستقامة، وفي ذلك إظهار لشرف الإيمان وثناء على أهله، ودعوة لهم للاستمساك به ودوام ملازمته.
- ولما كان الجزاء من جنس العمل فإنَّ صدعهم وجهرهم بإعلان التَّوحيد دون خوفٍ أو خشيةٍ من أحدٍ ناسبه أن يكون جزاؤهم نفي الخوف عليهم ونفي الحزن عنهم، وقد أوثر التعبير بالمضارع عند نزول ملائكة الرَّحمة بما يشرح صدور أولياء الله في الدنيا وعند الموت ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ لاستحضار هذا المشهد في الذهن، مع الإشارة لتجدّد هذه الحال والكرامة مع كلِّ نفسٍ مؤمنةٍ مستقيمة كلمَّا جدَّ بها ما يخيفها ويفزعها، فتأتي الملائكة من علوياتها كرامةً لهم بما يدفع عنها الخوف والحزن، ويشيع في نفوسهم السكينة والرِّضا، " والتّنزّل يكون من علوٍّ، وفيه تعظيم وتكريم لمن ينزلون، ومن ينزل عليهم، والتّنزّل يكون بالتَّتابع، وهو يفيد تكرّر نزول الملائكة"[1] من وقت لآخر، وفي إيثار تضعيف الفعل ﴿تَتَنَزَّلُ ﴾ على الفعل " تَنْزِل" ما يُؤكِّد أن الملائكة تتنزَّل عليهم من حينٍ لآخر وفق ما يعرض لهم على سبيل التدريج المتصل [2]، فالفعل تَفَعُّل من "نزل".
- ويزيد من تكريم الله للمؤمنين أنَّه في السِّياق الكريم التفاتٌ من الغيبة ﴿عَلَيۡهِمُ ﴾ إلى خطاب المتقين ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ ﴾؛ تشريفاً لهم واعتناءً بمقامهم وتفخيماً لشأنهم، وفي هذا التَّلوين الأدائي ما يلفت الانتباه ويصرف

(١) تفسير سورة فصلت: ٢٠٥، د. محمد صالح مصطفى، وانظر التحرير والتنوير: ٩ / ٢٨٤.
(٢) انظر نظم الدرر: ٦ / ٥٧١.

الذِّهن لهذا الحدث العظيم وكأنّنا نعايش أحداثه فنرى بعيوننا شخوصه ونسمع بآذاننا حواره.

- ويلاحظ أنَّ صدر الآيتين متشابه، والاختلاف بينهما أنَّ النهي عن الخوف والحزن جاء في آية فصلت من قول الملائكة للمؤمنين[١] ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾، فآيات هذا المقطع في سورة فصلت مبنية على المقابلة بالآيات قبلها، فالكفرة قرناؤهم الشياطين يُزيِّنون لهم قبائح أعمالهم في الدنيا وما خلفهم من أمور الآخرة، فهم خاسرون لأنفسهم وأهليهم يوم القيامة قال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة فصلت]، وفي الصورة المقابلة لها ذكر الله أنه قد أحاط عباده المتقين بالملائكة تحفظهم في أشدِّ مواطن الخوف [٢]، والنهي هنا خرج عن معناه الأصلي لمعنى مجازي هو التأنيس والتأمين، وهذا النهي كناية عن الطمأنينة التامة والتأمين الكامل من جانب الله تعالى لعباده الصالحين ؛ إذ يلزم من النهي عن الخوف والحزن تحقُّق الأمن في النّفوس، فالخوف: غمٌّ يلحق النفس لتوقع مكروه تُقْدِم عليه فيختصّ بالمستقبل، والحزن: غمٌّ يلحقها لوقوعه من فوات نافعٍ أو حصول ضارّ فهو مختصٌّ بالماضي، فالأمن هنا عام وشاملٌ من كلِّ المخاوف المستقبليَّة والماضية.

---

(١) إذا قيل: إن ﴿أَن﴾ مصدرية في الآية فـ ﴿لَا﴾ ناهية، ويصح أن تكون نافية، وإن قيل: إن ﴿أَن﴾ مخففة فـ ﴿لَا﴾ ناهية. انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه: ٦ / ٦٣٤.

(٢) لابن القيم كلام جميل في شرح ولاية الملائكة للمؤمنين. انظر روضة المحبين ونزهة المشتاقين: ٢٦٨، ٣٦٩.

• **والنَّهي عن الخوف والحزن جاء مطلقاً دون تقييد إرادة للعموم والشّمول" والمعنى أنَّ الله تعالى كتب لكم الأمن من كلِّ غمٍّ، فلن تذوقوه أبداً"[(١)].**

وزيادة في الاهتمام بشأن المخاطبين وتأكيد الأمن والطمأنينة في نفسهم أُتبع النّهي بالأمر بالبشارة بالجنة وهي الخبر السَّار ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ فالنَّفس إذا سُرَّت انتشر الدَّم فيها انتشار الماء في الشَّجر[(٢)]، فيظهر أثر السرور على بشرة الوجه، فاجتمع في الآية نهيان ثم أمر؛ وذلك لاقتضاء المقام والموقف العظيم يوم القيامة بثَّ كلّ هذا التطمين المتنامي؛ فإنَّ الملائكة تتلقَّى المؤمنين في الدنيا وعند الموت وفي القبر وعند البعث[(٣)]، فتنهاهم عن الخوف ممَّا هم مقدمون عليه من فزع الآخرة وأهوالها وهذا يتضمَّن ثبوت الأمن، وتنهاهم عن الحزن على ما خلَّفوه من أهلٍ وولد وذلك متضمِّن ثبوت السّرور ودوام الفرح، وزيادة في تأكيد الأمن في نفوسهم تتلقَّاهم بالتَّبشير بالجنَّة، فأتبع النَّهي بأمرٍ يؤكِّد مفهومه ويقرِّره، وهذا ملاحظ في نسق سورة فصلت كلها أن يتقدَّم النهي أو النفي ويعقبه أمر يؤكِّد مضمونه ويشعر بالحرص على تنفيذه[(٤)].

يقول أبو حيان عن سبب تقديم نفي الخوف على نفي الحزن متبوعاً بالبشرى: "ولما كان الخوف مما يُتوقَّع من المكروه أعظم من الحزن على الفائت قدَّمه، ثمَّ لما وقع الأمن لهم بُشِّروا بما يؤولون إليه من دخول الجنَّة،

---

(١) تفسير أبي السعود: ٨ / ١٣.

(٢) انظر بصائر ذوي التمييز: ٢ / ٢٠٠.

(٣) انظر معالم التنزيل: ٨٣٨ للبغوي، وتفسير أبي السعود: ٨ / ١٣.

(٤) انظر الآيات رقم: (٢٦ – ٣٠ – ٣٤ – ٣٧).

فحصل لهم الأمن التَّام والسرور العظيم"[١].

- وتبرز في الآية خاصيَّة إيقاعية جميلة عبر تكرار حرف الواو داخل الآية ﴿قَالُوا﴾ ﴿اسْتَقَامُوا﴾ ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ ﴿وَأَبْشِرُوا﴾ ﴿تُوعَدُونَ﴾ ممَّا أوجد تناسقاً صوتياً فريداً ونغماً عذباً لافتاً في آخر كلِّ كلمة، وحرصاً على تلاؤم الإيقاع تُرك ذكر الجار والمجرور فيما انتهت إليه فاصلة الآية وما ختمت به في قوله: ﴿تُوعَدُونَ﴾ وتقديره: توعدون بها.
- أمَّا آية الأحقاف فجاء الجزاء والبشارة فيها على الأصل من الله تعالى مباشرة نفيٌ لا نهيٌ، وجاء الجزاء فيها مقترناً بالفاء وذلك من روائع مواقع هذه الفاء ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، فالمبتدأ والخبر مرتبطان ارتباطاً معنويَّاً ولا يحتاجان إلى رابطٍ لفظيّ، فإذا جاءت زيادة الفاء على الخبر فإنَّ لها خصوصيَّة زائدة تؤدِّيها، وهي هنا الربط بين الخبر والمبتدأ برباط التَّسبيب والتَّرتيب، ولتضمُّن الاسم الموصول معنى الشَّرط [٢]، والمعنى: إنَّ استحقاق أولياء لنفي الخوف عليهم ونفي الحزن عنهم مترتِّبٌ على التوحيد والإيمان بالله وهو خلاصة العلم، وعلى الاستقامة على شرعه وهو منتهى العمل.
- وتُرك ذكر المفعول به في الفعل ﴿يَحْزَنُونَ﴾ إيجازٌ أراد به التَّعميم ليعمّ نفي فعل الحزن عنهم على جميع ما خلَّفوه وراءهم بعد مماتهم من حظوظ الدّنيا مع الاختصار، "والمراد بيان دوام نفي الحزن لا بيان نفي دوام الحزن كما يوهمه كون الخبر مضارعا"[٣].

(١) البحر المحيط: ٧ / ٤٩٦.

(٢) انظر تفسير البيضاوي: ٢ / ٣٩٤، وتفسير أبي السعود: ٨ / ٨٢.

(٣) تفسير أبي السعود: ٨ / ٨٢.

- ثم أتبع بالوعد الصَّادق أنهم أهل الجنَّة ماكثين فيها أبداً، حيث انتقل من التَّخلية إلى التَّحلية فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ويتجلَّى هنا إبداع السياق القرآنيّ وبلاغته في التَّعبير بالجملة الاسميَّة الدَّالة على ثبوت هذه الحال والجزاء لأولياء الله وملازمتها لهم يوم القيامة، وتعريفهم باسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ لتمييزهم أكمل تمييز في مقام الثناء والتَّكريم والإنعام، وتنبيهٌ على أنهم أحرياء بما سيرد من جزاءٍ بعد اسم الإشارة، والتعبير بالصُّحبة ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ يشعر بدوام صحبتهم للجنَّة وخلودهم فيها بحيث لا ينفكُّون منها إذ المصاحبة هي الدَّوام، والحال ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يشير إلى أنَّ النَّعيم يحيط بهم ويلفُّهم من كلِّ جانبٍ، وهذا منتهى التَّكريم والتَّحبُّب.
- وكما جاءت البشارة من الله لأوليائه الصَّالحين من غير واسطةٍ في سورة الأحقاف فإنَّه ذكر ذلك في سورة يونس فقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ [سورة يونس]، فالسِّياق القرآنيّ يرحل بالنَّفس المؤمنة ليُبيَّن قيمة الولاية وما أعدَّه الله لأوليائه المتَّقين من النَّعيم، وتبرز بلاغة الآية الكريمة من خلال الخصائص الآتية:
- بدأت الآية بحرفٍ من حروف التَّنبيه والتشويق وهو ﴿أَلَآ﴾ الاستفتاحيَّة، وهو حرفٌ يؤتى به لتنبيه مشاعر المخاطبين وأحاسيسهم، فيتوجَّهوا لسماع ما يلقى إليهم بعدها، ويصغوا إليه بعقولهم وقلوبهم فيقرّ فيها ويشتدّ حرصهم على امتثاله، وهو إنما يؤتى به في مقام الخبر العظيم ممَّا يُهتمّ بشأنه، بل هي معدودةٌ من حرف التأكيد والتحقيق "ولكونها بهذا المنصب من التحقيق لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدَّرة بنحو ما يُتلقَّى به القسم"[1].

(١) البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٥١٣.

- وبعد تهيئة الشّعور جاء صدر الجملة مؤكَّداً بأداة التأكيد المثقَّلة ﴿إِنَّ﴾ في سياق الجملة الاسميَّة الدالة على تحقُّق مضمونها؛ إرادةً لتقرير عظيم ثواب الله لأوليائه الصَّالحين الذين يتولَّونه بالطَّاعة ويتولاهم بالكرامة وتمكين ذلك في نفوس من يسمعونه، وإظهارا للحفاوة والعناية بأمرهم.
- وإضافة الأولياء إلى لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ روماً لتربية المهابة، وليضفي الله عليهم من جلاله ما يعظِّمهم في النُّفوس، فصفة ﴿أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ تبعث على تصوّر معنى المقاربة بين العبد وربِّه، وتبادل أسباب الولاء، مع ما في ذلك من الإيجاز فإن الإضافة أخصر الطرق للتعبير عن المضاف إذ إنه بدلا من أن يذكر أوصاف المسند إليه "المضاف هنا" الذي استحق هذا التشريف بهذه الإضافة اكتفى بإضافته إلى من حصل تشريفه به سبحانه.
- ولما كان أولياء الله في استغراقٍ تامٍ عقلاً وقلباً وجوارح لأوقاتهم في التَّقرب إلى الله بأنواع العبادات المفروضة والمندوبة، متجرِّدين من كلِّ ما سوى الله، خوفاً من أليم عقابه ن فإنَّه يتلَّقاهم بالأمان التامِّ في الآخرة من الخوف الذي كانوا يحذرونه لأنَّه رضي عنهم فآمنهم، ولا يلحقهم آفة حزن على ما فاتهم من أمور الدّنيا أو من النَّدم على التفريط في جنب الله.
- كما جاء التَّصريح ببشارة الله لعباده المتَّقين المتحابين والمتصادقين في الله بنفي الخوف عليهم ونفي الحزن عنهم مباشرة دون واسطة في نداء الحقِّ لعباده: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [سورة الزخرف]، ففي لجَّة الفزع العظيم والكرب الشَّديد يوم القيامة يخصّهم الله بنداء تكريمٍ ليستنهض عقولهم ويسترعي انتباههم لأمرٍ جليلٍ، وبشارةٍ عظيمةٍ، فالنّداء يهيِّىء المنادى وينبّهه، فيصغي بلهفةٍ وتشوّقٍ وإقبالٍ لمعرفة ما سيُلقى إليه والإحاطة بالمعنى الذي نُودي لأجله، فيقع في نفسه ويقرّ بداخله، وفي

الأسلوب انتقالٌ والتفاتٌ من أسلوب الغيبة المدلول عليه بالاسم الظَّاهر ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ في الآية قبلها ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ إلى طريق الخطاب ﴿يَٰعِبَادِ﴾ احتفاءً بالملْتَفَت إليهم واعتناء بشأنهم وتشريفاً لهم وتطييباً لقلوبهم.

- وآثر النداء بالحرف الموضوع لنداء البعيد "يا" مع أن المنادى شديد القرب منه ؛ لينبِّههم إلى عظم البشارة التي نودوا من أجلها، وتعظيماً وتكريماً لشأنهم، وإشعاراً بعلوِّ منزلتهم عنده.
- ثم جاء المنادى بأشرف الأوصاف وأحبها بوصفهم بالعبوديَّة ﴿عِبَادِ﴾ " ولها دلالة عجيبة هنا لأنها تعني أنَّهم أخلصوا عبوديتهم لله في حياتهم الدّنيا فتقبَّل الله منهم هذه العبوديَّة التي ليس فيها شائبة لغير الله ونادهم بها لأنه ليس أحبَّ إلى من عرف الله إلا أن يكون خالص العبوديَّة لله، ومن تمام خلوص العبوديَّة لله انصراف القلب انصرافاً كليَّاً إلى الله، وليس في درجات الحريَّة أعلى من درجة العبوديَّة لله ؛ لأن من كان عبداً لله لا يقبل أن يكون عبداً لغيره"(١).

وقد أضاف فيه العباد إضافة تشريفٍ إلى ياء المتكلم العائدة على الذَّات العليَّة فقال: ﴿يَٰعِبَادِ﴾ ودلالة ذلك الرِّقَّة والملاطفة بهم وشِدَّة الحدب عليهم والعناية بهم، فالإضافة ضربٌ من المعرفة تكسب ما تضاف إليه تخصيصاً وتعريفاً، وهي هنا أفادت شدَّة اختصاص هؤلاء العباد الأولياء بالله حيث أضافهم لنفسه ليقربهم إليه ويدنيهم منه، ويزيل عنهم وحشة السيئات والمعاصي، فيعظم رجاؤهم في رحمة الله ومرضاته عنهم.

---

(١) آل حم الشورى والزخرف والدخان " دراسة في أسرار البيان ": ٤٨٠.

• ونفي الخوف في هذا الموضع جاء دوناً عن بقيَّة المواضع مقيَّداً بكلمة ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ وعن سرِّ بلاغة هذا القيد يقول د. محمد أبو موسى: " وكلمة اليوم تعني أنَّه اليوم المخوف الذي قدَّمنا بعض ما قيل فيه في الكتاب العزيز وطالما خوَّفنا ربنا من هذا اليوم في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: ٢٨١] فمن أجاب وانقاد واتقى اليوم فلا خوف عليه في اليوم، وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [سورة البقرة: ٤٨]، وقوله: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا﴾ [سورة لقمان: ٣٣].

ومن المفيد أن نلاحظ المبادرة بنفي الخوف عنهم في أول اليوم فقد جاء ذلك عقب بيان انقلاب الخلَّة وصيرورتها عداوة، وإنما كان ذلك لما أبصروا وسمعوا وقالوا ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [سورة السجدة]، وكان نفي الخوف أي خوف واقع موقعه والخلائق كلها تستقبل أهوال ذلك اليوم من هول الموقف والمحشر وهول الصراط وهول الحساب وهول التلاق وهول التَّناد يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم...والمراد من نفي الخوف نفي الخوف نفسه وإن كانت أسبابه قائمة في أهوال الموقف والصراط والحساب، والكلُّ يمرُّ بهذه الأهوال وعباد الله وحدهم آمنون، وغيرهم فزعون"(١).

• بقي أن أشير إلى أنَّ الله عقَّب آية يونس بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾، وآية الزخرف عقَّبها بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ فنبَّه بعبارةٍ هي الغاية في الإيجاز على أنَّ الإيمان بالله وبآياته

(١) آل حم الشورى والزخرف والدخان " دراسة في أسرار البيان ": ٤٨٠.

وتقواه وإخلاص وجوههم لطاعته جلَّ جلاله سببٌ للنَّجاة في الآخرة ونيل البشرى بنفي الخوف والحزن، وفي تعريفهم بالموصول وإيثار وصله بالماضي للدِّلالة على تحقُّق الإيمان والإسلام والتَّقوى منهم فيما مضى من حياتهم في الدنيا، فقلوبهم قد عقدت على هذه المعاني العظيمة وتمكَّنت فيها، وفائدة ذكر فعل الكينونة ﴿وَكَانُوا﴾ " يعني أنَّ خبرها يتماهى مع اسمها يعني يكون جزءاً من ماهيته، فليس المراد أنَّهم مسلمون، ولكن المراد أنهم لطول مزاولتهم لطاعة الله ورسوله وطول ملابستهم لفعل ما أمر وكفّ النّفس عمَّا نهى صار هذا الإسلام جزءاً من ماهيتهم.

قال البقاعي: وكانوا دائماً بما هو لهم كالجبلَّة والخلق، وقال الطاهر: إنَّ فعل (كان) دالٌّ على اتحاد خبره باسمه حتى كأنَّه من قوام كيانه وهذا هو التماهي الذي قلناه، وهذا المضمون الذي أفاده هذا التَّركيب هو الذي قصد إلى التنويه به وعدم الاكتفاء بالدلالة الضمنيَّة؛ لأنَّ أصحاب هذه المرتبة العالية هم الذين كان انقيادهم لنا جبلة وخلقاً، وليس وصفاً يوصفون به فحسب، يعني هذا هو النعت المراد من الموصول وصلته"[1].

والفصل في صدر كلتا الآيتين لشبه كمال الاتصال فإنَّ عظم الخبر والبشارة قبلهما يثير في الذهن سؤالاً عن الأعمال التي استحقُّوا بها هذا الجزاء، فجاءت كلتا الجملتين جواباً عنه.

- ومن الدِّقة في التَّعبير مجيءُ آية يونس مختومة بالتعبير بالفعل المضارع ﴿يَتَّقُونَ﴾ الموحي بأنَّ أولياء الله في تجدُّدٍ للإيمان وإحداثٍ دائم للتَّقوى، فلا تراهم إلا في طاعةٍ لربهم يتقلَّبون أو سعيٍ للخير بين النَّاس يقضون.

(١) آل حم الشورى والزخرف والدخان " دراسة في أسرار البيان ": ٤٨٢.

وأمَّا آية الزخرف فختامها بالاسم ﴿مُسْلِمِينَ﴾ المشعر بالثَّبات والدَّوام على الإسلام، وأنَّ أولياء الله وعباده بلغوا مرحلة الكمال الإيمانيّ وثبوتهم عليه.

الخاتمة:

سعى هذا البحث للإجابة على أهمِّ وأبرز ملامح البلاغة القرآنيَّة في آيات" نفي الخوف والحزن عن أهل الإيمان"، وبحمد الله تمَّت دراستها من الوجهة البلاغيَّة باتّباع المنهج الاستقرائي التَّحليلي.

وقد تبيَّن لي من خلال هذا البحث نتائج عدَّة، من أبرزها ما يلي:

• أنَّ الدراسة البلاغيَّة تقع في القمَّة حين يكون ميدانها الوحي الإلهي، فالأسلوب القرآنيّ نصٌّ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميد، وهو مجالٌ بكر لا يزال في حاجةٍ إلى جهود الباحثين للكشف عن خصائص نظم القرآن وأساليبه البليغة.

• أكثر مواضع نفي الخوف والحزن جاءت في سورة البقرة فقد جاءت ختاماً لست آياتٍ في سورة البقرة التي هي أوَّل ما نزل من القرآن في المدينة النَّبويَّة، ومن إعجاز النَّظم القرآنيّ أن هذا الموعود الحسن بنفي الخوف والحزن عن أهل الإيمان جاء أوَّل مواقعه في القرآن الكريم: مجملاً في نهاية قصَّة آدم –أبو البشر– عليه السَّلام حين أُهبط من الجنَّة لحياة الابتلاء والشَّقاء على الأرض ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة البقرة]، ثم توالى على النَّاس في ثنايا القرآن أنواع اتِّباع تلك الهدايات وتفاصيل تلك الأعمال الصَّالحات التي من سلكها نال هذا الموعود الحسن.

• انتفاء الخوف والحزن جاء في جميع آي القرآن في سياق الجزاء والثواب للمؤمن على إيمانه بجميع أركان الإيمان "قولاً وعملاً واعتقاداً"، فنُفي

الخوف والحزن ابتداءً عمَّن ﴿ تَبِعَ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ ، ثم عن المؤمنين وصالحي الأمم السَّابقة من اليهود والنَّصارى والصابئين ممَّن ﴿ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ ، وعن ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ وعن ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ﴾ ، وعن ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ وعن ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾، وعن الشهداء المجاهدين في سبيل الله الـ ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ ، وعن ﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ ، ومن ﴿ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ ﴾ ، ومن ﴿ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ ﴾ ، وعن الأعراف من أهل الجنة ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ، وعن ﴿ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ ﴾ وعباده الصالحين ، الذين من صفاتهم أنَّهم ﴿ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ ، وعن ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ وعن ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ فجاءت بذلك تعضيداً لأصلٍ عظيمٍ من أصول أهل السنة والجماعة وهو أنَّ الإيمان قولٌ وعملٌ ونيَّة يزيد بالطَّاعة وينقص بالمعصية، فلا بدّ مع الإيمان القلبيّ من الإحسان العملي السلوكيّ ليستحقّ المؤمن هذا الأجر العظيم بأمنٍ وطمأنينةٍ لا يساوره فيها خوف، وفرحٍ دائم لا يمسّه حزن ونكد، فقرن الأعمال الصَّالحة مع الإيمان بالله سببٌ لعدم الخوف من المستقبل ولعدم الحزن على الفائت.

• البشارة بنفي الخوف والحزن عن المؤمنين وأولياء الله الصَّالحين تتنوَّع في مصدرها، فتارة يسمعونها من الله مباشرة دون واسطة، وتارة تكون بلاغاً عن الله بواسطة ملائكة الرحمة، وتارة لا يُذكر من يُبلِّغهم هذه البشارة.

• نفي الخوف والحزن عن أهل الإيمان يكون في الدنيا، ويكون بشارة عند الموت وحال نزع الرّوح، ويكون في القبر، ويكون عند القيام من القبر، ويكون في الآخرة يوم الأشهاد عندما يقدمون على ربهم عند دخولهم الجنَّة.

• يلاحظ تقديم نفي الخوف على نفي الحزن عن أهل الإيمان ؛ لأنَّ الإنسان يهتمّ بمعرفة الأمور المستقبليَّة أكثر من اهتمامه بمعرفة الأمور الماضية، فجاء ذكر الخوف أوَّلاً ليأمن المؤمن ويطمأن على مستقبله، ثم تساق له البشرى بنفي الحزن ليطمئن على ماضيه وحاضره.

وصلى الله وسلَّم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

أهم المصادر والمراجع

- **آل حم الشورى والزخرف والدخان " دراسة في أسرار البيان "**: د. محمد أبو موسى، ط١ / ١٤٣١هـ، مكتبة وهبة بالقاهرة.
- **آل حم الجاثية والأحقاف " دراسة في أسرار البيان "**: د. محمد أبو موسى، ط١ / ١٤٣٢هـ، مكتبة وهبة بالقاهرة.
- **آل حم غافر وفصلت " دراسة في أسرار البيان"**: د. محمد أبو موسى، ط١ / ١٤٣٠هـ، مكتبة وهبة بالقاهرة.
- **الإعجاز والإيجاز**: لأبي منصور الثعالبي، التزم شرحه وطبعه: اسكندر آصاف، ط ١ / ١٨٩٧م، طبع المطبعة العمومية بمصر.
- **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**: محمد الأمين الشنقيطي، اعتنى به: صلاح الدين العلايلي، ط ١/١٤١٧هـ، دار إحياء التراث العربي.
- **البحر المحيط**: لأبي حيَّان الأندلسي، تحقيق ودراسة الشيخ عادل عبد الموجود وآخرين، ط ١ / ١٤١٣هـ، دار الكتب العلميَّة، بيروت.
- **بدائع التفسير " الجامع لتفسير ابن قيم الجوزيَّة "**: جمعه: يسرى السيد، ط١/١٤١٤هـ، دار ابن الجوزي بالدمام.
- **البرهان في علوم القرآن**: بدر الدين الزركشي، تحقيق: د. يوسف المرعشلي وآخرون، ط١/١٤١٠هـ، دار المعرفة، بيروت.
- **البرهان في متشابه القرآن**: للكرماني، تحقيق: أحمد عز الدين، ط ١/١٤١١هـ، دار الوفاء.

- **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**: لمجد الدين الفيروزآبادي، الكتب العلمية، بيروت.
- **التحبير في علم التفسير**: السيوطي، تحقيق: د. فتحي فريد، ١٤٠٦هـ، دار المنار بمصر.
- **التحرير والتَّنوير**: الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.
- **تفسير أبي السعود " إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم "**: لأبي السعود العمادي، تحقيق: عبد القادر عطا، مكتبة الرياض الحديثة.
- **تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)**: للبيضاوي، ط١/١٤٠٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**: الفخر الرازي، ط ١/١٤١١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **تفسير القرآن العظيم**: لابن كثير، تحقيق: مصطفى السيد محمد وآخرون، مؤسسة قرطبة بالجيزة.
- **تفسير سورة فصلت**: د. محمد صالح مصطفى، ط ١/١٤٠٩هـ، دار النفائس بالرياض.
- **حاشية الشهاب الخفاجي (عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي)**، دار إحياء التراث، بيروت.
- **حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي**: دار الكتب العلمية بيروت.

- **خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغيَّة**: د. عبد العظيم المطعني، ط١/١٤١٣هـ، مكتبة وهبة بالقاهرة.
- **درة التنزيل وغرة التأويل**: للخطيب الإسكافي، دراسة وتحقيق: مصطفى آيدين، جامعة أم القرى.
- **دلائل الإعجاز**: الشيخ عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلَّق عليه: محمود شاكر، ط ٣ / ١٤١٣٣هـ، مطبعة المدني بالقاهرة.
- **دلالات التراكيب " دراسة بلاغية "**: د. محمد أبو موسى، ط ٢/١٤٠٨هـ، مكتبة وهبة بالقاهرة.
- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**: الألوسي، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت.
- **صحيح مسلم**: لأبي الحسين النيسابوري، ط ٢/١٤٢١هـ، دار السلام بالرياض.
- **فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن**: الأنصاري، تحقيق: محمد الصابوني، ط١/١٤٠٥هـ، بيروت.
- **فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرَّيب "سورة آل عمران"**: للطيبي، إعداد د. حسن بلغيث العمري، رسالة علميَّة "ماجستير" مقدَّمة لكلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلاميَّة.
- **قطف الأزهار في كشف الأسرار**: السيوطي، تحقيق ودراسة: د. أحمد الحمادي، إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بقطر.
- **كشف المعاني في المتشابه من المثاني**: لبدر الدين بن جماعة، تحقيق: د. عبد الجواد خلف، ط١/١٤١٠هـ، دار الوفاء.

- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**: لابن عطيَّة الأندلسي، دار ابن حزم.
- **من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم " الفاء وثم "**: د. محمد الأمين الخضري، ط ١/١٤١٤هـ، مكتبة وهبة بالقاهرة.
- **من بلاغة القرآن**: أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر بالقاهرة، ١٣٧٠هـ.
- **من بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم**: د محمد الصَّامل، ط١/١٤٢٢هـ، دار إشبيليا للنشر والتوزيع بالرياض.
- **المفردات في غريب القرآن**: لأبي القاسم الأصفهاني، إعداد مكتب التحقيق في مكتبة نزار الباز.
- **من متشابه القرآن الكريم في ضوء البلاغة العربيَّة**: د. إبراهيم الجعلي، ط ١/١٤١٣هـ، مطبعة الحسين الإسلاميَّة بالقاهرة.
- **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**: لأبي القاسم الزمخشري، وبهامشه حاشية ابن المنير (الانتصاف فيما تضمَّنه الكشاف من الاعتزال)، عناية: عبد الرزاق المهدي، ط١/ ١٤١٧هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**: البقاعي، ط ٢/١٤١٣هـ، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة.

فهرس الموضوعات

المقدمة ٤٧١

وتبرز بلاغة الآيات الكريمة من خلال الخصائص البلاغيَّة التالية: ٤٧٧

الموضع الأول: أنَّ انتفاء الخوف والحزن من الأول دالٌّ على وجودهما.. ٤٩١

الموقع الثاني: نفي الخوف والحزن عمَّن آمن بالله الإيمان الصحيح وعمل صالحاً من أهل الأديان السَّماوية: ٤٩٩

والموضع الثاني: قصر صفةٍ على موصوف في قوله في آيتي البقرة والمائدة: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾..... ٥٠٤

الموقع الثالث: نفي الخوف والحزن عمَّن أسلم وجهه لله وهو محسن .. ٥٠٨

الموقع الرَّابع: نفي الخوف والحزن عن المؤمنين الذين عملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزَّكاة:..... ٥٢٠

الموقع الخامس: نفي الخوف والحزن عن المنفقين أموالهم في سبيل الله تعالى:٥٢٦

الموقع السادس: نفي الخوف والحزن عن الشّهداء في سبيل الله: ٥٤٢

وتبرز بلاغة نظم الآية بما تحمله من خصائص بلاغية، منها:..... ٥٤٣

الموقع السابع: نفي الخوف والحزن عن أصحاب الأعراف:..... ٥٥٤

الموقع الثامن: نفي الخوف والحزن عن أولياء الله الصالحين: ٥٥٦

الخاتمة:..... ٥٧٤

أهم المصادر والمراجع..... ٥٧٧

فهرس الموضوعات: ٥٨٢